كتاب الأخلاق والسيِّر
في مداواة النفوس

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو محمد، عليُّ بن أحمد بن حزم، رضي الله عنه:

الحمد لله على عظيم مننه، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله، وسلم تسليما.

وأبرأ إليه تعالى من الحْول[١] والقوة، وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ويخلِّص في الأخرى من كل هول ومضيق.

أمَّا بعد؛

فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادنيها واهبُ التمييز تعالى، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحني - عزَّ وجلّ - من التهمُّم[٢] بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله، حتى أنفقت في ذلكَ أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه، على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الازدياد من فضول المال، وزممت[٣] كل ما سبرت[٤] من ذلك بهذا الكتاب،

(١) الحول: الحذق، وجودة النظر، والقدرة على دقة التصرف في الأمور.
(٢) تهمم الشيء: تحسسه، والتهمم المصدر منها.
(٣) زممت: زم فلان كلمته جعل لها من الصواب غرضا يرمى إليه.
(٤) سبر: خبر.

لينفع الله تعالى به مَن يشاء مِن عباده، ممن يصل إليه، بما أتعبت فيه نفسى، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكرى، فيأخذه عفوا، وأهديته إليه هنيئا، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد[1] الأملاك، إذا تدبَّره، ويسّره الله تعالى لاستعماله، وأنا راج فى ذلك من الله تعالى أعظم الأجر، لنيَّتى فى نفع عباده، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة علل نفوسهم وبالله أستعين.

❑❑❑

(١) عقد: تأكيد.

(١)

فصل فى مداواة النفوس
وإصلاح الأخلاق

لذَّةُ العاقلِ بتمييزه، ولذّةُ العالم بعلمه، ولذّة الحكيم بحكمته، ولذّةُ المجتهدِ لله عز وجل باجتهاده أعظم مِن لذّةِ الآكِلِ بأكله، والشاربِ بشربه، والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره. وبرهان ذلك أن الحكيمَ، والعاقل، والعالم، والعامل، واجدون لسائر اللذات التى سمَّيْنَاها كما يجدها المنهمكُ فيها، ويحسّونها كما يحسّها المقبلُ عليها، وقد تركوها، وأعرضوا عنها، وآثروا طلبَ الفضائلِ عليها، وإنما يحكم فى الشيئين مَن عرفَهما، لا مَن عرف أحدَهما ولم يعرف الآخر.

إذا تعقَّبتَ الأمورَ كلَّها فسدتْ عليك وانتهيتَ فى آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أنَّ الحقيقة إنّما هى العملُ للآخرة فقط، لأنَّ كلَّ أملٍ ظَفِرْتَ به فعقباه حزنٌ؛ إمَّا بذهابه عنك وإمَّا بذهابك عنه ولابدَّ مِن أحد هذين الشيئين، إلاّ العملُ لله عزّ وجلّ، فعقباه على كلِّ حالٍ سرورٌ فى عاجل وآجل. أمّا العاجلُ فقلّةُ الهمَّ بما يهتمُّ به الناسُ، وأنَّك به معظَّمٌ مِن الصديق والعدوّ، وأمّا فى الآجل فالجنَّةُ.

تَطَلَّبْتُ غرضًا يستوى الناسُ كلُّهم فى استحسانه، وفى طلبه، فلم أجده إلاّ واحدا، وهو طَرْدُ الهمِّ. فلمّا تدبّرته علمتُ أنّ الناس كلّهم لم يستووا فى إحسانه فقط، ولا فى طلبه فقط، ولكن رأيتُهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين هِمَمِهم وإراداتهم، لا يتحرّكون حركةً أصلًا إلاّ فيما يرجون به طَرْدَ الهمِّ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلاّ فيما يعانون به إزاحتَهُ عن أنفسهم، فمِن مخطىءٍ وَجْهَ سبيلهِ، ومِن مقارب للخطأ، ومِن مُصيب وهو الأقلُّ من الناس، فى الأقلِّ من أموره، فطَرْدُ الهمِّ مذهبٌ قد اتفقت الأمم كلّها، مُذْ خلق الله تعالى العالمَ إلى أن يتناهى عالمِ الابتداء ويعاقبه[1] عالم الحساب، على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئًا سواه، وكلُّ غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه، إذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة، وفى الناس مِن أهل الشرّ مَن لا يريد الخير، ولا الأمن، ولا الحق.

وفى الناس مَن يؤثر[2] الخمول بهواه وإرادته على بُعْدِ الصيت.

وفى الناس مَن لا يريد المالَ، ويؤثر عدمَه على وجوده، ككثير من الأنبياء عليهم السلام، ومن تلاهم مِن الزهّاد والفلاسفة.

وفى الناس مَن يبغض اللذاتَ بطبعه، ويستنقص طالبَها، كمن ذكرنا من المؤثرين فَقْدَ المالِ على اقتنائه.

---

(١) يعاقبه: يأتى بعده.

(٢) فى المخطوطة: يريد.

وفى الناس مَن يؤثر الجهلَ على العلم، كأكثر مَن ترى مِن العامَّة.

وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها.

وليس فى العالم مُذْ كان إلى أن يتناهى أحدٌ يستحسن الهمَّ، ولا يريد طَرْدَه عن نفسه، فلما استقرّ فى نفسى هذا العلم الرفيع، وانكشف لى هذا السرّ العجيب، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم، بحثت عن سبيلٍ موصِّلةٍ على الحقيقة إلى طَرْد الهمّ، الذى هو المطلوب للنفس، الذى اتفق جميع أنواع الإنسان، الجاهل منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعى له، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة.

وإلاَّ، فإنّما طَلَبَ المالَ طلاَّبُهُ ليطردوا به هَمَّ الفقر عن أنفسهم.

وإنّما طلب الصوت[1] من طلبه ليطرد به عن نفسه هَمَّ الاستعلاء عليها.

وإنما طَلَبَ اللذاتَ مَن طَلَبَها ليطرد بها عن نفسه هَمَّ فَوْتِها.

وإنّما طَلَبَ العلمَ من طلبه ليطرد به عن نفسه هَمَّ الجهل.

وإنّما هشّ إلى سماع الأخبار، ومحادثة الناس، مَن يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هَمَّ التوحُّدِ، ومغيب أحوال العالم عنه.

وإنَّما أَكَلَ مَن أكل، وشَربَ مَن شرب ونَكَحَ مَن نكح، ولَبِس مَن لبس، [ولعب مَن لعب، واكتنّ من اكتنّ[2]، وركب من ركب] ومَشَى

---

(١) الصوت: الصيت.

(١) اكتن: استتر.

مَن مشى، وتودَّعَ مَن تَودَّع، ليطردوا عن أنفسهم أضدادَ هذه الأفعال وسائر الهموم.

وفي كلِّ ما ذكرنا، لمن تدبَّر، همومٌ حادثةٌ لابدّ لها من عوارض تَعْرِضُ في خلالها، وتعذُّر ما يتعذَّر منها، وذهاب ما يوجد منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة، وأيضا نتائجُ سوءٍ تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك، مِن خَوْفِ مُنافسٍ، أو طَعْنِ حاسدٍ، أو اختلاسِ راغبٍ، أو اقتناءِ عدوٍ، مع الذمّ والإثم، وغير ذلك.

ووجدتُ العملَ للآخرة سالمًا من كلّ عَيْب، خالصًا من كلِّ كَدَر، موصِّلاً إلى طْرد الهمِّ على الحقيقة. ووجدتُ العاملَ للآخرة إن امْتُحِنَ بمكروه في تلك السبيلِ لم يهتمّ، بل يُسَرّ، إذ رجاؤه في عاقبة ما يَنَالُ به عونٌ له على ما يطلب، وزائدٌ في الغرض الذي إيّاه يقصد.

ووجدتُه إنْ عاقه عمّا هو بسبيله عائقٌ لم يهتمّ، إذ ليس مؤاخذًا بذلك، فهو غيرُ مؤثر في ما يطلب.

ورأيتُه إنْ قُصِدَ بالأذى سُرَّ، وإنْ نكبته نكبةٌ سُرَّ، وإنْ تعب فيما سلك فيه سُرَّ، فهو في سرور مُتَّصِل أبدًا، وغيره بخلاف ذلك أبدا.

فاعلم أنّه مطلوبٌ واحد، وهو طَرْدُ الهم، وليس له إلاّ طريقٌ واحد، وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْف.

لا تبذلْ نفسَك إلاّ فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلاّ فى ذات الله عزَّ وجلَّ، وفى دعاءٍ إلى حقّ، وفى حماية الحريم، وفى دَفْع هوانٍ لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفى نَصْرِ مظلومٍ، وباذل نفسه فى عَرَض دنيا كبائع الياقوت بالحصى.

لا مروءةَ لمن لا دين له.

العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلاّ الجنة.

لإبليسَ فى ذمِّ الرياء حِبالة[1]، وذلك أنّه رُبَّ ممتنعٍ من فِعْلِ خيرٍ خوْفَ أَنْ يُظَنَّ به الرياء.

❑❑❑

---

(١) حبالة: مصيدة.

(٢)
باب عظيم من أبواب العقل والراحة

وهو اطّراح المبالاة بكلام الناس، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عزّ وجلّ، بل هذا باب العقل كلّه، والراحة كلّها.

مَن قَدَّرَ أنْ يسلم مِن طَعْنِ الناسِ وعيبهم فهو مجنون.

مَن حَقَّقَ النظَر، وراضَ نفسَه على السكون إلى الحقائق، وإنْ آلمتها فى أوّل صدمة، كان اغتباطُهُ بذمِّ الناسِ إيّاه أشدَّ وأكثر مِن اغتباطه بمدحهم إيَّاه، لأنَّ مدحهم إيَّاه إنْ كان بحق، وبَلَغَهُ مَدْحهُم له، أسرى ذلك فيه العُجْبَ، فأفسد بذلك فضائله، وإنْ كان بباطل فبلغه، فسرّه، فقد صار مسرورًا بالكذب، وهذا نقص شديد.

وأمَّا ذمُّ الناسِ إيّاه، فإن كان بحقٍّ فبلغه، فربما كان ذلك سببًا إلى تجنبه ما يعاب عليه، وهذا حظٌّ عظيم لا يزهد فيه إلاّ ناقص، وإنْ كان بباطل وبلغه فَصَبَر اكْتَسَبَ فضلا زائدًا بالحلم والصبر، وكان مع ذلك غانمًا، لأنه يأخذ حسنات مَن ذمَّه بالباطل، فيحظى بها فى دار الجزاء، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمالٍ لم يتعب فيها، ولا تَكَلَّفَها، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلاَّ مجنون.

وأَمَّا إنْ لم يبلغه مَدْحُ الناس إيَّاه، فكلامهم وسكوتهم سواء، وليس كذلك ذمّهم إياه، لأنه غانمٌ للأجر على كل حال، بلغه ذمُّهم

أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله ﷺ في الثناء الحسن: «ذلك عَاجِلُ بُشْرى المؤمن» لوجب أن يرغب العاقلُ فى الذمّ بالباطل أكثر من رغبته فى المدح بالحق، ولكن إذْ جاء هذا القول فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل، فإنما تجب البشرى بما فى الممدوح لا بنفس المدح.

ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصى، إلاّ نِفارُ النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنستْ نفسُه بالفضائل والطاعات، ونفرتْ من الرذائل والمعاصى، والشقىُّ من أنست نفسه بالرذائل والمعاصى، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس ها هنا إلاّ صنع الله تعالى وحفظه.

طالبُ الآخرة ليفوز فى الآخرة مُتَشَبِّهٌ بالملائكة، وطالبُ الشرِّ متشبهٌ بالشياطين، وطالبُ الصوْتِ والغلبة متشبِّهٌ بالسباع، وطالبُ اللذّاتِ متشبِّهٌ بالبهائم، وطالبُ المالِ لعْينِ المال، لا لينفقه فى الواجبات والنوافل المحمودة، أَسْقَطُ وأرْذَلُ من أن يكون له فى شىء من الحيوان شَبَهٌ، ولكنّه يُشبه الغدران التى فى الكهوف، فى المواضع الوعرة، لا ينتفع بها شىءٌ مِن الحيوان.

فالعاقلُ لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبعٌ أو بهيمة، أو جماد، وإنَّما يغتبط بتقدُّمه فى الفضيلة التى أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات، وهى التمييز الذى يشارك فيه الملائكة.

فمن سُرَّ بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها لله - عزّ وجلّ - فليعلمْ أنّ النمر أجرأ منه، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومَن سُرَّ بقوّة جسمه فليعلمْ أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسما، ومَن سُرَّ بحمله الأثقال فليعلمْ أنَّ الحمار أحمل منه، ومَن سُرَّ بسرعة عَدْوِهِ فليعلمْ أنَّ الكلب والأرنب أسرع عَدْوًا منه، ومَن سُرَّ بحسن صوته فليعلمْ أنّ كثيرًا مِن الطير أحسن صوتًا منه، وأنَّ أصواتَ المزاميرِ ألذُّ وأطرب مِن صوته. فأىُّ فخر، وأىُّ سرور، فى ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه؟.

لكن مَن قَوِىَ تمييزه، واتسع علمُه، وحَسُنَ عملهُ، فليغتبط بذلك، فإنّه لا يتقدمه فى هذه الوجوه إلاّ الملائكةُ وخيار الناس.

قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1] جامعٌ لكلِّ فضيلة، لأنَّ نَهْىَ النفس عن الهوى هو رَدْعُها عن الطبع الغضبىِّ، وعن الطبع الشهوانىّ، لأنّ كليهما واقعٌ تحت موجب الهوى، فلم يبق إلاّ استعمال النفس للنطق الموضوع فيها، الذى به بانت عن البهائم والحشرات والسباع.

قَوْلُ رسولِ الله، ﷺ، للذى استوصاه: «لا تغضب»، وأمره - عليه السلام - أنْ يُحِبَّ المرءُ لغيره ما يحب لنفسه، جامعان لكل

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ و ٤١.

فضيلة، لأنَّ في نَهْيِهِ عن الغضب رَدْعَ النفس ذات القوّةِ الغضبيَّةِ عن هواها، وفى أَمْرِه عليه السلام أَنْ يحب المرءُ لغيره ما يحب لنفسه رَدْعُ النفسِ عن القوَّة الشهوانية، وجَمْعٌ لأزِمَّة[1] العدل الذى هو فائدة النطق الموضوع فى النفس الناطقة.

رأيتُ أكثَر الناس، إلاّ من عصم الله تعالى وقليلٌ ما هم، يتعجلون الشقاء والهم والتعب لأنفسهم فى الدنيا، ويحتقبون[2] عظيم الإثم الموجب للنار فى الآخرة، بما لا يحظون معه بنفع أصلا، مِن نِيَّاتٍ خبيثة يَضِبُّونَ[3] عليها، مِن تَمَنِّى الغلاءَ المهلكَ للناس وللصغار، ومَن لا ذنب له، وتمِّنى أشدَّ البلاءِ لمن يكرهونه، وقد علموا يقينا أن تلك النيات الفاسدة لا تعجِّلُ لهم شيئا مما يتمنَّوْنه، أو يوجب كونه، وأنّهم لو صَفَّوْا نياتهم وحسَّنُوها، لتعجَّلوا الراحة لأنفسهم، وتفرّغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر فى المعاد[4]، مِن غير أنْ يؤخِّر ذلك شيئا مما يريدونه، أو يمنع كونه، فأىُّ غبنٍ أعظمُ مِن هذه الحال التى نبَّهنا عليها، وأىُّ سَعْدٍ أعظمُ من التى دعونا إليها؟

---

(١) أزمة: جمع زمام، وزمام الأمر ملاكه.

(٢) يحتقبون الإثم: يجمعونه، كأنه يحتملونه من خلفهم.

(٣) ضب على الشىء، وأضب: احتواه ولزمه فلم يفارقه.

(٤) المعاد: الحياة الآخرة.

إذا حقّقتَ مدة الدنيا لم تجدها إلاّ الآن، الذى هو فصل الزمانين فقط، وأمّا ما مضى وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن، فمن أضل ممن يبيع باقيًا خالدًا بمدة هى أقل من كرّ الطرف.

إذا نام المرءُ خرج عن الدنيا، ونسى كلَّ سرور، وكلَّ حُزْنٍ، فلو رتَّبَ نفسه فى يقظته على ذلك أيضا لسعد السعادة التامة.

من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطهم، ومن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم، وخيرهم، وأفضلهم.

❑❑❑

(٣)

فصل فى العلم

لو لم يكن مِن فضلِ العلم إلاّ أنّ الجهّال يهابونك ويجلّونك، وأنّ العلماء يُحبُّونك ويُكرمونك، لكان ذلك سببًا إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة. ولو لم يكن مِن نقص الجهل إلاّ أنّ صاحبه يحسدُ العلماءَ، ويغمط نظراءه من الجهّال، لكان ذلك سببًا إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة.

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلاّ أنّه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التى لا تفيد غير الهمِّ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره، ومن أقلِّها ما ذكرنا، مما يحصل عليه طالب العلم، وفى مثله أتعبَ ضعفاءُ الملوك أنفسَهم، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنّرْد[1]، والخمر والأغانى، ورَكْضِ الدوابّ فى

(١) النرد: لعبة ذات صندوق وحجارة وفصين، تعتمد على الحظ، وتتنقل فيها الحجارة على حسب ما يأتى به الفص (أو الزهر)، وتعرف عند العامة فى مصر بالطاولة.

طلبِ الصيد، وسائر الفضول التى تعود بالمضرَّة فى الدنيا والآخرة، وأمّا فائدة فلا فائدة.

لو تدبّر العالم فى مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذلِّ بتسلُّط الجهّال، ومن الهمِّ بمغيب الحقائق عنه، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفيَّة عن غيره، لزادَ حمدًا لله ﷻ، وغِبطةً بما لديه من العلم، ورغبةً فى المزيد منه.

مَن شغل نفسه بأدنى العلوم، وترك أعلاها وهو قادر عليه، كان كزارع الذرة فى الأرض التى يجود فيها البُرُّ[1] وكغارس الشَّعْراء[2] حيث يزكو النخل والزيتون.

نَشْرُ العلمِ عند مَن ليس مِن أهله مُفْسِدٌ لهم، كإطعامِكَ العسلَ والحلواءَ مَن به احتراقٌ وحُمَّى، أو كتشميمِكَ المسكَ والعنبرَ لمن به صداع من احتدام الصفراء.[3]

الباخلُ بالعلم ألأمُ من الباخل بالمال، لأنّ الباخل بالمال أَشْفَقَ مِن فناء ما بيده، والباخل بالعلم بَخِلَ بما لا يفنى على النفقة، ولا يفارقه مع البذل.

---

(١) البر: القمح.

(٢) الشعراء: ضرب من الخوخ، وشجرة من الحمض ليس لها ورق، ولها هدب، تحرص عليها الإبل حرصًا شديدًا، وتخرج عيدانًا شدادا.

(٣) يلتقى ابن حزم فى هذا الاتجاه مع المذهب الأرستقراطى عند فلاسفة اليونان، الذين يجعلون العلم وقفا على طبقة مختارة متميزة.

مَن مَالَ بطبعه إلى عِلْم ما، وإنْ كان أدنى من غيره، فلا يشغلها بسواه فيكون كغارس النَّارجيل[1] بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينجب.

أجَلُّ العلومِ ما قرّبك من خالقك تعالى، وما أعانك على الوصول إلى رضاه.

انظر في المال والحال والصحة إلى مَن دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى مَن فوقك.

العلومُ الغامضة كالدواء القويِّ يصلح الأجسادَ القوية، ويهلك الأجساد الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقلَ القويَّ جودةً وتصفيةً من كل آفةٍ، وتُهلِكُ ذا العقل الضعيف.

مِن الغْوصِ على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل لكان أحكم من الحسن البصري، وأفلاطون الأثيني، وبزرجمهر الفارسي[2].

(١) النارجيل: واحدته نارجيلة، شجر من فضيلة النحل، فيه أنواع للتزيين، وأخرى مثمرة، وثمرها يسمى: جوز الهند.

(٢) الحس البصرى: من كبار المحدثين فى القرن الأول الهجرى، ويقولون إنه كان يعرف سبعين صحابيا ممن اشتركوا فى معركة بدر، والجانب الأكبر من الحركات الدينية التى ظهرت فى الإسلام يعود إليه، فقد اتخذ الصوفية من زهده وتقواه مثلا يحتذى، ولا يمل أهل السنة من ترديد أقواله وأحاديثه، ويعتبره المعتزلة واحدا منهم، وتوفى يوم الجمعة ١٠ من أكتوبر عام ٧١٨م.

انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ ص ٢٢٧، طبعة بولاق.

• أفلاطون: فيلسوف يونانى، ولد فى أثينا عام ٤١٧ ق.م. فى أسرة شريفة كبيرة النفوذ، وتتلمذ على سقراط، وصحبه حتى النهاية، وجاء إلى مصر وأمضى فيها=

وقفَ العقلُ عند أنه لا ينفع إن لم يُؤَيَّد بتوفيقٍ فى الدين، أو بسَعْدٍ فى الدنيا.

لا تضرَّ بنفسَكَ فى أنْ تجرّبَ بها الآراءَ الفاسدة، لتُرِى المشير بها فسادها فتهلك، فإنّ مَلامة ذا الرأىِ الفاسد لك على مخالفته، وأنت ناجٍ من المكاره، خيرٌ لك مِن أنْ يعذرك، ويندم كلاكما، وأنت قد حصلت فى مكاره.

إيَّاكَ وأنْ تسرَّ غيَركَ بما تسوء به نفسَكَ، فيما لم توجِبْهُ عليك شريعةٌ أو فضيلة.

وقفَ العلمُ عند الجهلِ بصفات البارى عزّ وجلّ[1].

=عاما، اتصل خلاله بالمدرسة الكهنوتية فى عين شمس، ثم عاد إلى وطنه، وتوفى عام ٣٤٧ ق.م، وترك عددا من المؤلفات، من بينها: «سقراط»، و «المأدبة» و «فيدون» و «الجمهورية»، وغيرها.

• بزرجمهر: وزير كسرى أنو شروان ملك فارس، ومؤدب ابنه هورمزد، الذى خلف أباه على العرش، وبعض الروايات تنسب إليه ترجمة «كليلة ودمنة» من الهندية إلى الفارسية، ولكن برويز الذى تولى الملك بعد هرمزد أعدمه.

(١) اختلف علماء التوحيد فيما يتصل بصفات الله:

المعتزلة يرون أن وحدته تقتضى ألاّ تكون له صفة زائدة عن الذات، وما ورد فى الكتاب والسنة من آثار تثبت أن له عرشا، أو وجها، أو يدا، أو نحوها، يجب أن يؤول تأويلا يلائم الوحدة المطلقة المجرّدة، ووحدته تقتضى ألاّ تكون له صفة زائدة عن الذات، وما جاءت به النصوص من صفاته الثبوتية مثل العلم والقدرة لا يفيد شيئا خارجا عن حقيقته، فالله عالم وقادر بذاته، وهكذا.

وخالف السلفُ المعتزلة، فقبلوا النصوص الواردة بالجسمية والمكانية على ظاهرها بلا كيف ولا تشبيه، فلله عرش لا كالعروش، ويدا لا كالأيدى، وعزوا إليه=

لا آفة على العلوم وأهلها أضرّ من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ويفسدون ويقدّرون أنهم يصلحون.

مَن أرادَ خيرَ الآخرة، وحكمةَ الدنيا، وعدْلَ السيرة، والاحتواءَ على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاقَ الفضائل بأسرها، فليقتدِ بمحمد رسول الله، ﷺ، وليستعملْ أخلاقَهُ وسَيْرَه، ما أمكنه، أعاننا الله على الإتساء به[1]، بمَنِّه، آمين[2].

=صفات متميزة عن الذات كالعلم والحياة والسمع والبصر والإرادة.

وسلك الأشاعرة طريقا وسطا، فسلموا بالصفات التى قال بها السلف، إلا أنهم فسّروها تفسيرا معنويا يقرب بها من آراء المعتزلة، فأثبتوا لله صفات وجودية كالعلم والقدرة والإرادة على أنها معانى أزلية قائمة بالذات، ولم يستطيعوا أن ينكروا أن لله عرشا ووجها ويدا، وغيرها مما ورد فى الكتاب والسنة، ولكنهم يقبلونها من غير كيف ولا تشبيه، ويجيزون تأويلها على نحو ما فعل المعتزلة.

ويرى ابن حزم أنه لا يصح استخدام القياس أو العقل عند الحديث عن الصفات الإلهية، ومقارنتها بصفات الكمال الإنسانى، ويجب التوقف عن الأخذ بشىء منها، «لأن الله تعالى لم ينص قط فى كلامه المنزل على لفظ الصفات، ولا على لفظ الصفة، ولا حفظ عن النبى ﷺ بأن لله تعالى صفة، أو صفات. نعم، ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن أحد من خيار التابعين، ولا عن أحد من خيار تابعى التابعين».

• الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ج ٢ ص ١٢٠، طبعة القاهرة ١٣٢١هـ.

ويتفق الإمام محمد عبده مع ابن حزم فى رأيه تماما، ويرى أن البحث فى هذا عبث ومهلكة: عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك، ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد، ويصدر بحثه فى هذا بالحديث النبوى: «تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا».

رسالة التوحيد، ص ٤٨ وما بعدها، الطبعة ١١، القاهرة ١٣٦٥هـ.

(١) الإتساء: الاقتداء.

(٢) هذه الفقرة ذات أهمية خاصة لدراسة تطور المفهوم الأخلاقى فى الإسلام.=

غاظنى أهلُ الجهلِ مرّتَيْن مِن عمرى: إحداهما، بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلى. والثانية، بسكوتهم عن الكلام بحضرتى، فهم أبدا ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

وسرّنى أهلُ العلم مرّتَيْن مِن عمرى: إحداهما، بتعليمى أيام جهلى، والثانية، بمذاكرتى أيام علمى.

مِن فَضْلِ العلم والزهد فى الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عزّ وجلّ إلاّ لأهلهما ومستحقهما، ومِن نَقْصِ عُلُوِّ أحوالِ الدنيا من المال والصوت أنّ أكثر ما يقعان فى غير أهلهما، وفيمن لا يستحقهما.

مَن طَلَبَ الفضائل لم يساير إلاّ أهلَها، ولم يُرافق فى تلك الطريق إلاّ أكرم صديق، من أهل المواساة والبِرِّ والصدق وكرم العشيرة، والصبر والوفاء والأمانة والحلم، وصفاء الضمائر وصحة المودّة.

وَمن طَلَبَ الجاهَ والمال واللذات لم يساير إلاّ أمثالَ الكلاب

=ففى القرون الأولى من حياته كان الصحابة بوصفهم بشرا عاديين المثل الأعلى فى الأخلاق، الذى يمكن، ويجب، أن يحتذى.

ثم تقدم الأمر خطوة، كما نرى فى نص ابن حزم هذا، فأصبح الاقتداء بالرسول ﷺ، فى أخلاقه وسيرته، بقدر ما يتاح لنا، وفى حدود إمكاننا.

وفيما بعد ابن حزم دفع الصوفية بالأمر خطوة ثالثة إلى الأمام، فرأى الإمام الغزالى أن هناك مثلين عاليين للكمال يقتدى بهما، النبى لعامة الناس، والله لمن يطلبون الكمال الصوفى. انظر:

- إحياء علوم الدين، ج ٢ ص ٢٤٨، طبعة القاهرة ١٣١٢هـ.
- مقاصد الفلسفة، ص ٢٣، طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ.

الكَلِبة، والثعالب الخَلِبة[1]، ولم يرافق فى تلك الطريق إلاّ كلّ عدِّو المعتقد، خبيث الطبيعة.

منفعةُ العلم فى استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنّه يُعَلِّم حسن الفضائل فيأتيهَا ولو فى النُّدْرة، ويُعلِّم قُبْحَ الرذائل فيجتنبها ولو فى الندرة، ويُسمع الثناءَ الحسن فيرغِّب فى مثله، والثناءَ الردىء فينفِّر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصّةٌ فى كل فضيلة، وللجهل حصّةٌ فى كل رذيلة. ولا يأتى الفضائل ممن لم يتعلم العلمَ إلاّ صافى الطبع جدا، فاضل التركيب، وهذه منزلة خُصَّ بها النبيون عليهم الصلاة والسلام، لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس.

وقد رأيت من غمِار[2] العامة مَن يجرى مِن الاعتدال، وحميد الأخلاق، إلى ما لا يتقدمه فيه حكيمٌ عالم رائضٌ[3] لنفسه، ولكنه قليل جدا. ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام، ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه فى خبث السيرة، وفساد العلانية والسريرة، شِرارُ الخلق، وهذا كثير جدا، فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى.

❑❑❑

(١) الخلبة: الخادعة.
(٢) الغمار: الجمع المزدحم المتكاثف.
(٣) راض نفسه: طوّعها وعلمّها

(٤)

فصل فى الأخلاق والسير

احرص على أَنْ توصف بسلامة الجانب، وتحفَّظ مِن أَنْ توصف بالدهاء، فيكثر المتحفِّظون منك، حتى ربما أضرّ ذلك بك، وربما قَتَلك.

وَطِّنْ نفسَك على ما تكره يقلّ همُّكَ إذا أتاك، ولم تستضرّ بتوطينك أوّلاً، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قَدَّرْتَهُ.

إذا تكاثرت الهموم سقطت كلُّها.

الغادرُ يفى للمجدود[1] والوفيّ يغدر بالمحدود، والسعيد كل السعيد في دنياه مَن لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان.

لا تفكِّرْ فيمن يؤذيك، فإنّك إنْ كنتَ مقبلا فهو هالك وسعدُك يكفيك، وإنْ كنتَ مدبرًا فكلّ أحدٍ يؤذيك.

طوبَى لمن علم مِن عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها.

الصبرُ على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام:

فصبرٌ عمّن يقدِر عليك ولا تقدر عليه.

وصبرٌ عمّن تقدر عليه ولا يقدر عليك.

---

(١) المجدود: المحظوظ.

وصبرٌ عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك.

فالأوّلُ ذلٌّ ومهانة، وليس من الفضائل، والرأىُ لمن خَشِىَ ما هو أشدُّ مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة.

والثانى فضلٌ وبِرٌّ، وهو الحِلْمُ على الحقيقة، وهو الذى يوصف به الفضلاء.

والثالث ينقسم قسمين: إمّا أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلاّ على سبيل الغلط، ويعلم قُبْحَ ما أتى به، ويندم عليه، فالصبرُ عليه فضلٌ وفرض، وهو حِلْمٌ على الحقيقة. وأمّا مَن كان لا يدرى مقدار نفسه، ويظن أنّ لها حقًّا يستطيل به، فلا يندم على ما سلف منه، فالصبرُ عليه ذلٌّ للصابر، وإفسادٌ للمصبور عليه، لأنه يزيد استشراءً[1]، والمقارضة[2] له سُخْفٌ، والصواب إعلامه بأنه كان ممكنًا أنْ يُنْتَصَرَ منه، وأنّه إنّما تُرِك ذلك استرذالاً له فقط، وصيانةً عن مراجعته، ولا يزاد على ذلك.

وأمَّا جفاءُ السِّفْلَةِ فليس جزاؤه إلاّ النَّكَال[3] مَن جالسَ الناسَ لم يعدَم همًّا يؤلم نفسه، وإنمَّا يندم عليه فى معاده، وغيظًا ينضج كبده، وذلاًّ ينكس همته، فما الظن بعدُ بمن خالطهم وداخلهم،

(١) استشراء: تفاقما.

(٢) المقارضة: مقابلة السوء بمثله.

(٣) النكال: العقاب.

والعزُّ والراحة والسرور والسلامة فى الانفراد عنهم، ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها.

لو لم يكن فى مجالسة الناس إلاّ عيبان لكفيا: أحدهما الاسترسال عند الأنس بالأسرار المهلكة القاتلة، التى لولا المجالسةُ لم يبح بها البائح. والثانى مواقعة الغلبة المهلكة فى الأخرة، فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البلّيتين إلاّ بالانفراد عن المجالسة جملة.

لا تحقِرْ شيئًا من عَمَلِ غدٍ أنْ تحقِّقه، بأنْ تُعجله اليوم وإنْ قلّ، فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعْجزَ أمرها عند ذلك، فيبطل الكل.

لا تحقر شيئًا مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أنْ تَعجَله الآن، وإنْ قلّ، فإنّه يحط عنك كثيرا لو اجتمع لقذف بك فى النار[1].

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى الآية ٤٧ من سورة الأنبياء، وهى: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين». وقد فهم كثير من علماء المالكية فى الأندلس الآية فيها حرفيا، وتصوروا ميزانا بكفتين، توضع الحسنات فى واحدة منهما، والسيئات فى الأخرى. أما المعتزلة، وفلاسفة المسلمين، فقد فهموا الآية على إنها إشارة إلى عدل الله. وقبل ابن حزم الأمر فى كتابه «الفصل» على ظاهره فيما يتصل بالميزان، تمشيا مع مذهبه الظاهرى، ولكنه توقف عن تقديم أى تفسير، أو الدخول فى التفصيلات. انظر:

• الفصل، ج ٤، ص ٦٥ و ٦٦.

• خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية فى الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية. ترجمة د. الطاهر أحمد مكى، ص ١١٣ و ١١٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

الوجعُ، والفقر، والنكبة، والخوف، لا يحسُّ أذاها إلاّ مَن كان فيها، ولا يعلمه مَن كان خارجًا عنها. وفسادُ الرأيِ، والعار، والإثم، لا يعلم قبحها إلاّ مَن كان خارجًا عنها، وليس يراه من كان داخلاً فيها.

الأمنُ، والصحة، والغنى، لا يعرف حقَّها إلا من كان خارجًا عنها، وليس يعرف حقها من كان فيها. وجودة الرأى، والفضائل، وعمل الآخرة، لا يعرف فضلها إلاّ مَن كان مِن أهلها، ولا يعرفه مَن لم يكن من أهلها.

أوّلُ مَن يزهدُ فى الغادرِ مَن غدر له الغادر.

وأوّل من يمقتُ شاهدَ الزور من شهِد له به.

وأوّل من تهون الزانيةُ فى عينه الذى يزنى بها.

ما رأيتنا شيئًا فسد فعاد إلى صحته إلاّ بعد لأيٍ[1]، فكيف بدماغٍ يتوالى عليه فسادُ السُّكْرِ كل ليلةٍ، وإنَّ عقلاً زيّن لصاحبه تعجيلَ إفساده كل ليلة لعقلٌ ينبغى أن يُتَّهَم.

الطريقُ تُبرم[2]، والزوايا[3] تُكْرِم، وكثرةُ المالِ تُرغب، وقِلّتُه تُقنع.

---

(١) اللأى: الإبطاء، والشدة، والاحتباس.

(٢) تبرم: تضجر.

(٣) الزوايا: جمع زاوية، وكانت فى الأندلس على ما عليه الحال الآن فى شمال أفريقيا، وفى صعيد مصر: مكان يضم مسجدا للصلاة، ومدرسة للتربية، ومأوى لاستقبال السائرين مجانًا.

قد يَنْحس العاقلُ بتدبيره، ولا يجوز أنْ يسعد الأحمق بتدبيره.

لا شيءَ أضرَّ على السلطان من كثرة المتفرِّغين حواليه، فالحازمُ يشغلهم بما لا يظلمهم فيه، فإنْ لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه.

وأما مُقَرِّبُ أعدائه فذلك قاتلُ نفسه.

كَثْرَةُ وقوعِ العْين على الشخص يُسهِّلُ أمَره ويهوِّنه.

التهويلُ بلزوم تَزِيٍّ ما، والاكفهرار[1]، وقِلَّةُ الانبساط، ستائُر جعلها الجهّالُ الذين مكّنتهم الدنيا أمام جهلهم.

لا يغترُّ العاقلُ بصداقةٍ حادثة له أيّام دولته فكلُّ أحدٍ صديقُه يومئذٍ.

اجهد فى أنْ تستعين فى أمورك بمن يريد منها لنفسه مثل ما تريد لنفسك، ولا تستعن فيها بمن حظَّه مِن غيرك كحظّه منك.

لا تُجبْ عن كلامٍ نُقِلَ إليك عن قائلٍ حتى توقن أنَّه قاله، فإنّ من نقل إليك كذبا رجع مِن عندك بحق.

ثِقْ بالمتدِّين وإنْ كان على غير دينك، ولا تَثِقْ بالمستخفِّ وإنْ أظهر أنّه على دينك.

من استخفَّ بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيءٍ مما تشفق عليه.

وجدتُ المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم. هذا شيء طال اختبارى إيّاه، ولم أجد قط على طول التجربة سواه،

---

(١) الاكفهرار: العبوس.

فأعيتنى معرفةُ العلّة فى ذلك، حتى قدَّرتُ أنَّها طبيعة فى البشر.

مِن قبيح الظلم الإنكارُ على مَن أكْثَرَ الإساءةَ إذا أحسنَ فى النُّدْرة[1].

من استراح من عدوٍّ واحد حدث له أعداء كثيرة.

أَشْبَهُ ما رأيت بالدنيا خيالُ الظلِّ، وهى تماثيل مُرَكّبَةٌ على مطحنة خشب، تُدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى[2].

---

(١) الندرة: القلة.

(٢) هذه الفقرة بالغة الأهمية فى التأريخ لفن خيال الظل، لأنها تعنى أنه وجد فى الأندلس فى فترة مبكرة، تعود إلى أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ويرجح الدارسون أن هذه اللعبة وفدت إلى مصر خلال العصر الفاطمى، من الصين، أو الهند، أو جاوة، وانتقلت من مصر إلى الأندلس، وكانت العلاقات التجارية بين البلدين متواصلة وقوية، والرحلات العلمية لا تتوقف، وكان عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى، مصريا يتاجر فى الأقمشة، وعالمًا جليلا، ومحدّثا متبحرًا فى الوقت نفسه، وكان أستاذا لابن حزم، ولا يذكره هذا فى طوق الحمامة إلاّ مسبوقا بكلمة «أستاذى».

وقد أشار ابن حزم، فى كتابه «الفصل»، إلى لعبة خيال الظل مرتين: المرة الأولى فى ج ١ ص ١١٠، حيث يقول: «وقد فضحت أنا حيلة أبى محمد المعروف بالمخرق فى الكلام المسموع بحضرته ولا يرى المتكلم، وسمت بعض أصحابه أن يسمعنى ذلك فى مكان آخر، أو بحيث الفضاء دون بنيان فامتنع من ذلك، فظهرت الحيلة. وإنما هى قصبة مثقوبة توضح وراء الحائط على شق خفى، ويتكلم الذى طرف القصبة على فيه، على حين غفلة ممن فى المسجد، كلمات يسيرة، الكلمتين والثلاث لا أكثر من ذلك، فلا يشك من فى البيت مع المخرق الملعون فى أن الكلام اندفع بحضرتهم، وكان المتكلم فى ذلك محمد بن عبد الله الكاتب صاحبه».

والمرة الثانية فى ج ٥ ص ٦، حيث يقول: «... كما يفعل العجائبى الذى يضرب=

طال تعجُّبِى فى الموت، وذلك أنى صحبتُ أقواما صُحْبة الروح للجسد مِن صِدْقِ المودّة، فلما ماتوا رأيتُ بعضهم فى النوم، ولم أر بعضهم، وقد كنتُ عاهدتُ بعضهم فى الحياة على التزوار فى المنام بعد الموت، إنْ أمكن ذلك، فلم أره فى النوم بعد أن تقدّمنى إلى دارِ الآخرة، فلا أدرى أَنَسِىَ أم شُغِل.

غفْلةُ النفسِ ونسيانها ما كانت فيه فى دار الابتلاء قبل حلولها فى الجسد كغفلة من وقع فى طين غمر[1] عن كل ما عُهِدَ وعُرِفَ قبل ذلك. ثم أطلت الفكر أيضا فى ذلك فلاحَ لى شِعْبٌ[2] زائد من البيان، وهو أنى رأيتُ النائم إذ همّتْ نفسه بالتخلّى من جسده،

= بسكينة فى جسم إنسان، فيظن من رآه ممن لا يدرى حيلته، أن السكين غاصت فى جسد المضروب، وليس كذلك، بل كان نصاب السكين مثقوبا فقط، فغاصت السكين فى النصاب. وكإدخاله خيطا فى حلقة خاتم يمسك إنسان غير متهم طرفى الخيط بيديه، ثم يأخذ العجائبى الخاتم الذى فيه الخيط بفيه، وفى ذلك المقام أدخله تحت يده، وكان فيه خاتم أخرى، يرى من حضر حلقة الخاتم الذى فى فيه، يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط، ثم يرد فمه إلى الخيط، ويرفع يديه وفمه فينظر الخاتم الذى كان فيه الخيط».

وهى إشارات أهملها تماما، على أهميتها، الذين أرخوا للعبة «خيال الظل»، أوربين وعربا، وزعموا أنه انتقل إلى أوربا عن طريق إيطاليا، مرورا بمصر، بعد الغزو العثمانى، والحق أن هذا الفن كان فى الأندلس قبل ذلك بزمن طويل. انظر:

• إبراهيم حمادة: خيال الظل وتمثيليات ابن دنيال، دراسة وتحقيق، القاهرة ١٩٦٣م.

(١) غمر: كثير وواسع.

(٢) شعب: ناحية، أو طريق، أو انفراج بين جبلين.

وقَوِىَ حسُّها حتى تشاهد الغيوب، قد نسيت ما كان فيه قبيل نومِها نسيانا تاما ألبتة، على قرب عهدها به، وحدثت لها أحوالٌ أُخر، وهى فى كل ذلك ذاكرة حسّاسة، متلذِّذة آلمة، ولذة النوم محسوسة فى حاله، لأنَّ النائم يلتذّ ويحتلم، ويخاف ويحزن فى حال نومه[1].

---

(١) فى هذه الفقرة، والتى قبلها، يشير ابن حزم إلى مشكلتين هامتين من مشاكل فلسفة ما وراء الطبيعة، وشغلا جميع المفكرين، وهما: حياة النفس الإنسانية بعد الموت، وسابق وجودها قبل أن تحل فى الجسد. ومذهب ابن حزم كما يقرره فى كتابه «الفصل»: أن النفس لا تفنى بفناء الجسد، وإنما تبقى بعده، وتحيا فى «البرزخ» إلى يوم البعث، فتعود وتتحد معه من جديد، لتدخل الجنة أو النار. وأن نفوس الأنبياء والشهداء فقط هى التى تدخل الجنة لحظة موتها. والمذهب السائد بين أهل السنة أن النفوس لا تنتظر فى «البرزخ» حتى البعث، وإنما تبقى فى جانب من القبر حيث يدفن الجسد، ويصف ابن حزم حياة النفوس فى هذه المرحلة الانتقالية بأنها روحية خالصة.

والمشكلة الثانية تتصل بوجود النفس قبل أن تحل فى البدن، ويقدم لنا ابن حزم فى هذا حلا غير منتظر، إذا أخذنا نقده العنيف لأتباع الفلسفة المشائية فى الإسلام، وكثيرا ما يتهمهم بالكفر والزندقة. فهو يرى فى وضوح أن الله خلق النفوس الإنسانية كلها دفعة واحدة، قبل أن تحل فى أجسادها، ووضعها فى «البرزخ»، ومنه تخرج لتحل كل نفس فى جسدها، أى النفوس كانت موجودة فى «البرزخ» قبل أن تحل فى الأجسام، وإليه تعود بعد أن تفارقها.

ورأى ابن حزم هذا لا يبعد كثيرا عن رأى الأفلاطونية الجديدة، فهم يرون أن النفس جوهر كامل بذاتها، وأن اتحادها مع الجسد عارض، ويلقى ستارا على ذكرياتها عن حياتها قبل أن تحل بالجسد، ولهذا ترى أن الجسد سجن معتم،=

إنّما تأنس النفسُ بالنفس، فأمّا الجسد فمستثقل مهروم[1] به، ودليل ذلك استعجالُ المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقته نفسُه، وأسفه لذهاب النفس وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه.

لم أر لإبليس أصيد، ولا أقبح، ولا أحمق، من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته: إحداهما اعتذار من أساء بأن فلانًا أساء قبله. والثانية استسهال الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيء في وجه ما، لأنه قد أساء في غيره، فقد صارت هاتان الكلمتان عذرا، مُسهِّلَتَيْنِ للشرِّ، ومُدْخِلَتَيْنِ له في حدّ ما يُعرف، ويُحمل، ولا يُنكر.

اسْتَعْمِلْ سوءَ الظن حيث تقدر على توفيته حقّه في التحفظ والتأهُّب، واستعملْ حسنَ الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ فتربح راحة النفس.

حدُّ الجودِ وغايته أنْ تبذل الفضل كله في وجوه البرِّ، وأفضل ذلك في الجار المحتاج، وذي الرَّحِم الفقير، وذي النعمة الذاهبة،

=يُصعِّب عمل النفس الجوهري، وهو - كمادة متبذلة، وغير صافية - يشوه صفاءها الجوهري والفطري، ويلوّثه، انظر:

ابن حزم: الفصل، ج ٢ ص ١٠٦، وج ٤ ص ٧١، وج ٥ ص ٨٨، وج ٦ ص ٦٩.

الدكتور إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، ص ١٤٨ وما بعدها، القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

(١) مهروب: مضعوف به.

والأحضر فاقة. ومنع الفضل من هذه الوجوه داخل فى البخل، وعلى قدر التقصير والتوسُّع فى ذلك يكون المدح والذم، وما وُضِعَ فى غير هذه الوجوه فهو تبذير، وهو مذموم. وما بذلتَ من قوتك لمن هو أمسُّ حاجة منك فهو فضل وإيثار، وهو خير من الجود، وما مَنع من هذا فهو لا حمدٌ ولا ذمّ، وهو انتصاف.

بَذْلُ الواجباتِ فرضٌ، وبَذْلُ ما فضل عن القوت جودٌ، والإيثار على النفس من القوت بما لا تهلك على عدمه فضل، ومنع الواجبات حرام.

ومَنْعُ ما فضل عن القوت بخلٌ وشح، والمنعُ من الإيثار ببعض القوتِ عذرٌ، ومنعُ النفس، أو الأهل، القوتَ أو بعضه نَتْنٌ ورذالة ومعصية. والسخاءُ بما ظلمتَ فيه، أو أخذتَهُ بغير حقّه، ظلمٌ مكرّر، والذمّ جزاءُ ذلك لا الحمد، لأنك إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك، وإعطاءُ الناسِ حقوقهم مما عندك ليس جودا ولكنه حق.

حَدُّ الشجاعة بذلُ النفس للموت عن الدين والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المتسجير المظلوم، وعن الهضيمة[1] ظلمًا فى المال والعرض، وفى سائر سُبُلِ الحق، سواءٌ قلّ من يُعارض أو كُثر، والتقصيرُ عما ذكرنا جبنٌ وخوَرٌ. وبَذْلُها فى عَرَض الدنيا تهُّورٌ وحُمْقٌ. وأحمق من ذلك من بذلها فى المنع عن الحقوق الواجبات قِبَلَكَ أو قَبَلَ غيرك، وأحمقُ من هؤلاء كلّهم قومٌ شاهدتهم لا يدرون

(١) الهضيمة: الظلم والغصب.

فيما يبذلون أنفسهم، فتارةً يقاتلون زَيْدًا عن عمرو، وتارة يقاتلون عمرًا عن زَيْد، ولعلّ ذلك يكون في يوم واحد، فيتعرضون للمهالك بلا معنى، فينقلبون إلى النار، أو يفرّون إلى العار، وقد أنذر بهؤلاء رسولُ الله ﷺ في قوله: «يأتي على الناس زمانٌ لا يدرى القاتلُ فيم قَتَل، ولا المقتولُ فيم قُتِل»[1].

حدُّ العفَّة أن تغضّ بصرَك وجميعَ جوارحك عن الأجسام التي لا تحلُّ لك، فما عدا هذا فهو عُهْرٌ، وما نقص حتى يُمْسِك عما أحلّ الله تعالى فهو ضعفٌ وعجز.

حدُّ العدل أنْ تُعطى من نفسك الواجب وتأخذه.

وحدُّ الجْور أنْ تأخذه ولا تعطيه.

---

(١) يرى أسين بلاثيوس في تعليقه على هذه الفقرة، في ترجمته الكتاب إلى الإسبانية، أن ابن حزم يشير، دون أدنى شك، إلى سلسلة المؤامرات، والفتن، والاضطرابات السياسية، التي أسالت الدماء حول خلفاء بني أمية في أواخر عصر الحجابة، بعد موت المظفر عبد الملك عام ٣٩٩هـ - ١٠٠٩م، وأوائل عصر الطوائف الذي تلاه، وكان الصراع عنيفا، ولا يجرى على سنن مألوف، ولا يلتزم خلقا متبعا، واستخدم الناس السلاح لتحقيق أحقر الطموحات، وقد شهد ابن حزم كل هذا بعينه، وشارك بنفسه في أحداثه الأولى. انظر:

مقدمة الكتاب.

د. الطاهر أحمد مكي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الفصل الخاص بفتنة البربر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

وحدُّ الكرم أنْ تُعطى من نفسك الحقّ طائعًا، وتتجافى عن حقّك لغيرك قادرًا، وهو فضل أيضا، وكلُّ جودٍ كرمٌ وفضل، وليس كلُّ كرمٍ وفضل، جودا، فالفضل أعمّ، والجود أخص، إذ الحِلْمُ فضلٌ وليس جودا، والفضل فرضٌ زِدْتَ عليه نافلة.

إهمال ساعة يفسد رياضة سنة.

خطأُ الواحد فى تدبير الأمور خيرٌ من صواب الجماعة التى لا يجمعها واحد، لأن الواحد فى ذلك يُسْتدرك، وصوابُ الجماعة يُضْرِى[1] على استدامة الإهمال، وفى ذلك الهلاك.

نّوارُ الفتنةِ لا يَعْقِد[2].

كانت فىَّ عيوبٌ، فلم أزل بالرياضة، واطلاعى على ما قالت الأنبياء صلوت الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخّرين والمتقدمين فى الأخلاق وفى آداب النفس، أُعانى مداواتها حتى أعان الله عزّ وجلّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنِّهِ. وتمامُ العدل، ورياضةُ النفس والتصرُّف بأزمَّة الحقائق، هو الإقرار بها، ليتّعظ بذلك متَّعظٌ يوما إن شاء الله.

فمنها كَلَفٌ فى الرضاء، وإفراطٌ فى الغضب، فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفتُ عند تَرْك إظهار الغضب جُمْلةً بالكلام والفعل والتخبُّط،

---

(١) يُضرى: يجعلها تولع به وتعتاده.

(٢) شبه الفتنة بزهرة الثمرة التى تموت قبل أن تتفتح وتعطى ثمرتها.

وامتنعتُ مما لا يحل من الانتصار، وتحمّلْتُ من ذلك ثِقَلاً شديدا، وصبرتُ على مضض مؤلم، كان ربّما أمرضنى وأعجزنى ذلك فى الرضى، وكأنِّى سامحتُ نفسى فى ذلك، لأنها تمثَّلتْ أنَّ تَرْكَ ذلك لؤم.

ومنها دعابةٌ غالبة، فالذى قَدَرْتُ عليه فيها إمساكى عما يُغضب الممازحَ، وسامحت نفسى فيها إذ رأيتُ تركها من الانغلاق، ومضاهيًا للكْبر.

ومنها عُجْبٌ شديد، فناظَر عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له - والحمدُ لله - أثُر، بل كلَّفْتُ نفسى احتقارَ قدرها جُمْلَةً، واستعمال التواضع.

ومنها حَرَكاتٌ كانت تولِّدُها غَرارةُ[1] الصِّبا، وضِعْفُ الإغضاء، فقصرتُ نفسى على تركها فذهبت[2].

ومنها مَحَبَّةٌ فى بُعْدِ الصيت والغلبة، فالذى وقفتُ عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عمّا لا يحل فى الديانة، والله المستعان على الباقى، مع أنَّ ظهور النفس الغضبِيَّة إذا كانت منقادةً للناطقة فضلٌ وخلقُ محمود[3].

---

(١) الغرارة: الغفلة.

(٢) لم يشر ابن حزم إلى ماهية، أو طابع، هذه الحركات التى ولدتها لديه غرارة الصبا، وترك الأمر غائما.

(٣) لعل ابن حزم يشير فى هذه الفقرة إلى ما كان من اندفاعه وشدته فى جدله وحواره الشفوى، وإلى ما تتسم به كتبه من عنف وحدة.

ومنها إفراطٌ في الأنَفَةِ بَغَّضَتْ إليَّ إنكاحَ الحُرَم جُمْلَةً، بكلِّ وجه، وصعَّبتْ ذلك في طبيعتي، وكأنِّي توقَّفْتُ عن مُغالبةِ هذا الإفراط الذي أعرف قبحه، لعوارض اعترضت عليَّ، والله المستعان[1].

ومنها عيبان قد سترهما الله تعالى، وأعان على مقاومتهما، وأعان بلطفه عليهما، فذهب أحدهما ألبتّة ولله الحمد، وكأنّ السعادة كانت موكَّلةً بي، فإذا لاح منه طالعٌ قصدت طمسه، وطاولني الثاني منهما، فكان إذا ثارت منه مدوده[2] نبضتْ عروقه، فيكاد يظهر، ثم يسَّر الله تعالى قَدْعَه[3] بضروب من لطفه تعالى حتى أخلد[4].

(١) أرجح ابن حزم يشير في هذه الفقرة إلى قصة حبه، وهو فتى، للفتاة التي كانت تعيش في قصر والده، وهي قصة رائعة، ومثيرة، وصفها لنا ابن حزم نفسه تفصيلا في كتابه «طوق الحمامة»، وأثارت برقتها وعذوبتها جدلا عنيفا عن حب ابن حزم وطبيعته، وعن أسرته وأصولها. أنظر القصة في:

• طوق الحمامة لابن حزم، ص ١٤٤ وما بعدها، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

• غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذري في الأندلس، في كتابنا: دراسات عن ابن حزم، وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

(٢) مدوده: جمع مد، وهو في الأصل السيل وكثرة الماء، واستخدمه ابن حزم مجازا.

(٣) قدعه: كفّه ومنعه.

(٤) آثر ابن حزم ألاّ يفصح عن هذين العيبين عنده، وليس لنا أن نحاول استنتاجها، أو الوصول إليها، ما دام أراد لنفسه ألاّ يصرح بهما، ومن غير شك إنهما مما يخجل.

ومنها حِقْدٌ مُفْرِطٌ قَدَرْتُ بعون الله تعالى على طَيِّهِ وسَتْره، وغلبتُه على إظهارِ جميع نتائجه، وأمَّا قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزنى معه أنْ أُصادق من عادانى عداوة صحيحة أبدا.

وأمّا سوء الظن فيعدُّه قومٌ عيبًا على الإطلاق، وليس كذلك، إلاّ إذا أدّى صاحبَه إلى ما لا يحلُّ فى الديانة، أو إلى ما يقبح فى المعاملة، وإلاّ فهو حزمٌ، والحزم فضيلة.

وأمَّا الذى يَعيبنى به جُهَّالُ أعدائى، من أنى لا أبالى فيما أعتقده حقًّا عن مخالفة مَن خالفتُه، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، وأنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعوّدوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها، ولعمرى لو لم تكن فىَّ - وأعوذ بالله - لكانت من أعظم مُتَمنَّياتى وطلباتى عند خالقى عزّ وجلّ، وأنا أُوصى بذلك كلَّ من يبلغه كلامى، فلن ينفعه اتّباعه الناسَ فى الباطل والفضول إذا أسخطَ ربَّه تعالى، وغَبَنَ عقلَهَ، أو آلمَ نفسَه وجسده، وتكلّف مؤونةً لا فائدة فيها.

وقد عابنى أيضا بعضُ من غاب عن معرفة الحقائق أنِّى لا آلمُ لنيل من نال منى، وأنِّى أتعدَّى ذلك من نفسى إلى إخوانى، فلا أمتعضُ لهم إذا نِيل منهم بحضرتى. وأنا أقول إنَّ من وصفنى بذلك فقد أجملَ الكلامَ ولم يُفسِّره، والكلام إذا أُجمل اندرج فيه

تحسين القبيح، وتقبيح الحسن. ألا ترى لو أنَّ قائلا قال: إنّ فلانا يطأ أُختَه لفحُش ذلك، ولاستقبحه كلُّ سامعٍ له، حتى إذا فسّر فقال: هى أختُه فى الإسلام ظهر فُحْشُ هذا الإجمال وقبحه.

وأمّا أنا فإِنّى إنْ قلتُ لا آلم لنيْل من نال منى لم أَصْدُق، فالألم فى ذلك مطبوع مجبول فى البشر كلهم، لكنِّى قد قَصَرْتُ نفسى على أنْ لا أُظهر لذلك غضبًا، ولا تخبُّطاً، ولا تهيُّجًا، فإن تيّسر لى الإمساك عن المقارضة جملة بأن أتأهَّبْ لذلك فهو الذى أعتمد عليه بحول الله تعالى وقوّته، وإن بادرنى الأمر لم أُقارض إلاّ بكلام مؤلم غير فاحش، أتحرى فيه الصدق ولا أُخرجُه مخرجَ الغضب ولا الجهل.

وبالجملة فإنى كارهُ لهذا إلاّ لضرورة داعية إليه، مما أرجو به قمعَ المستشرى فى النيل منى، أو قدعَ الناقل إلىَّ، إذ أكثُر الناس مُحِبُّون لإسماع المكروه مَن يُسْمعونه إيَّاه على ألْسنةِ غيرهم، ولا شىءَ أقدع لهم مِن هذا الوجه، فإنهم يكفُّون به عن نَقْلهم المكاره على ألسنة الناس إلى الناس، وهذا شىءُ لا يفيد إلاّ إفساد الضمائر، وإدخال النمائم فقط.

ثُمَّ بعد هذا فإنَّ النائِلَ منى لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما:

إمَّا أنْ يكون كاذبًا وإمَّا أنْ يكون صادقًا، فإنْ كان كاذبًا فلقد عجَّل الله لى الانتصار منه على لسان نفسه، بأن حصل فى جملة

أهل الكذب، وبأن نبَّه على فضلى بأنْ نسبَ إليَّ ما أنا منه بريءُ العِرْضِ وما يعلم أكثر السامعين له كذبَه، إمَّا فى وقته ذلك وإمَّا بعد بحثهم عمّا قال.

وإنْ كان صادقا فإنَّه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

إمّا أنْ أكون شاركْتهُ فى أمر استرحتُ إليه استراحة المرء إلى من يقدِّر فيه ثقة وأمانة، فهذا أسوأُ الناس حالةً، وكفى به سقوطاً وضعة. وإمّا أنْ يكون عابنى بما يظن أنّه عيبٌ وليس عيبًا، فقد كفانى جهلُهُ شأَنه، وهو المعيب لا من عاب. وإمَّا أنْ يكون عابنى بعيبٍ هو فىَّ على الحقيقة، وعلم منِّى نقصاً أطلق به لسانه، فإنْ كان صادقاً فنفسى أحقُّ بأنْ ألوم منه، وأنا حينئذ أجدرُ بالغضب على نفسى مِنِّى على مَن عابنى بالحق.

وأمّا أَمْرُ إخوانى فإنى لَسْتُ أُمْسِكُ عن الامتعاض لهم، لكنى أمتعض امتعاضاً رقيقًا، لا أزيدُ فيه على أَنْ أندِّم القائلَ منهم بحضرتى، وأجعلُه يتذمَّم ويعتذر، ويخجلُ ويتنصَّل، وذلك بأنْ أسلُكَ به طريقَ ذمِّ مَن نال مِن الناس، وأَنَّ نَظَرَ المرءِ فى أمْرِ نفسه، والتهمُّم بإصلاحها أوْلى به مِن تتبُّع عَثَرات الناس، وبأَنْ أذكُرَ فضلَ صديقى، فأُبكِّتُه على اقتصاره على ذِكْر العيب دون الفضيلة، وأن أقول له: إنه لا يرضى بذلك فيك، فهو أولى بالكرم منك، فلا ترضَ لنفسك بهذا، أو نحو هذا من القول.

وأمَّا أنْ أُهارش[1] القائل فأحميه، وأهيج طباعَه، وأستثيرَ غضبَه، فينبعث منه فى صديقى أضعافَ ما أكره، فأنا الجانى حينئذ على صديقى، والمعرِّضُ له بقبيح السبِّ، وتكراره فيه، وإسماعه مَن لم يسمعه، والإغرار به، وربما كنتُ أيضًا فى ذلك جانيًا على نفسى ما لا ينبغى لصديقى أن يرضاه لى، من إسماعى الجفاء والمكروه، وأنا لا أريد من صديقى أن يَذُبَّ عنى بأكثر من الوجه الذى حدَّدتُ، فإنْ تعدَّى ذلك إلى أنْ يُسابَّ النائل منِّى حتى يُولِّد بذلك أنْ يتضاعف النيْلُ، وأن يتعدى أيضا إليه بقبيح المواجهة، وربّما إلى أبوىَّ وأَبَوَيْه على قَدْر سَفَهِ النائل ومنزلته من البذاءة، وربّما كانت منازعة بالأيدى، فأنا مُسْتَنْقِصٌ لفعله فى ذلك، زارٍ[2] عليه، مُتَظَلِّمٌ منه، غير شاكر له، لكنِّى ألومه على ذلك أشدّ اللوم، وبالله تعالى التوفيق.

وذمَّنى أيضًا بعضُ من تعسَّف الأمورَ دون تحقيق بأنِّى أُضيِّع مالى. وهذه جملةٌ بيانها أنِّى لا أضيُّع منه إلاّ ما كان فى حفظه نقصُ دينى، أو إخلاقُ[3] عرضى، أو إتعابُ نفسى، فإنِّى أرى الذى أحفظ

(١) أهارش: أتحرش وأخاصم.
(٢) زارٍ: عائب وعاتب.
(٣) إخلاق عرضى: المسّ بعرضى.

من هذه الثلاثة، وإن قلَّ، أجلَّ في العوض مما يضيع من مالى، ولو أنه كل ما ذرّت[1] عليه الشمس.

ووجدتُ أفضلَ نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحُبِّه، وعلى الحق وإيثاره، فما استعنتُ على قَمْعِ هذه الطوالع الفاسدة، وعلى كل خير فى الدين والدنيا إلاَّ بما فى قوتى من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وأمَّا من طُبعَ على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فَلْيَيْئَس مِن أنْ يُصلح نفسه، أو يقِّوم طباعه أبدا، وليَعْلَمْ أنَّه لا يُفلح فى دين ولا فى خلقٍ محمود.

وأما الزهْوُ والحسدُ والخيانةُ فلم أعرفها بطبعى قط، وكأننى لا حمد لى فى تَرْكِها، لمنافرة جِبلَّتى إيّاها[2]، والحمد لله رب العالمين.

مِن عَيْبِ حبُّ الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحبّ عاملها أنْ يُذكَر بها، فكاد يكون شِرْكًا، لأنّه يعمل لغير الله تعالى، وهو يطمس الفضائل، لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حُبًّا للخير، لكن ليذكر به.

(١) ذرّت: طلعت.

(٢) منافرة جبلتى: مخاصمة خلقى وطبيعتى.

أَبْلَغ فى ذَمِّك من مَدَحَكَ بما ليس فيك، لأنه نبَّه على نَقْصك.
وأَبْلَغ فى مَدْحك من ذَمَّك بما ليس فيك، لأنّه نبّه على فضلك، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة.
لو عَلِمَ الناقصُ نقصَه لكان كاملا.
لا يخلو مخلوقٌ من عيب، فالسعيدُ من قَّلتْ عيوبه ودقَّتْ.
أَكْثَرُ ما يكون ما لم يُظَن، فالحزم هو التأهُّب لما يُظَن، فسبحان مَن رتَّبَ ذلك لُيرِىَ الإنسان عجزَه وافتقاره إلى خالقه عزّ وجلّ.

❑❑❑

(٥)

فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة

استبقاك مَن عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك.

العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإماّ تصفو وإمّا تطير.

مَن طوى مِن إخوانك سرّه الذى يعنيك دونك أخْوَنُ لك ممن أفشى سرّك، لأن من أفشى سِرَّك فإنما خانك فقط، ومن طوى سرّه دونك منهم فقد خانك واستخونك.

لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى.

لا تزهد فيمن يرغب فيك، فإنّه بابٌ من أبواب الظلم، وتَرْكِ مقارضة الإحسان، وهذا قبيح.

مَن امتُحِن بأنْ يخالط الناسَ فلا يُلق بوهمه كله إلى مَن صحب، ولا يبن منه إلاّ على أنَّه عدوّ مناصب، ولا يصبح كلَّ غداةٍ إلاّ وهو مترقِّب من غدر إخوانه، وسوء معاملتهم، مثل ما يترقَّب من العدو المكاشف، فإنْ سَلِمَ من ذلك فلله الحمد، وإنْ كانت الأخرى ألفى متأهِّبًا ولم يمت همًّا.

وأنا أعلمك أنّ بعض من خالصنى المودة، وأصفانى إيّاها غاية الصفاء، فى حال الشدَّة والرخاء، والسعة والضيق، والغضب

والرضى، تَغَيَّرَ علىَّ أقبح تَغَيُّرٍ بعد اثنى عشر عامًا متصلة فى غاية الصفاء، ولسبب لطيف[١] جدًا ما قدَّرتُ قط أنَّه يؤثرِّ مثلُه فى أحد من الناس، وما صلح لى بعدها، ولقد أهَمَّنيِ ذلك سنين كثيرةً همًّا شديدًا[٢].

ولكن، لا تستعمل مع هذا سوء المعاملة، فَتُلْحَقَ بذوى الشرارة[٣] من الناس وأهل الخبّ[٤] منهم. ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك، شاقة المُتَكَلَّف، يحتاج سالكها إلى أنْ يكون أهدى من القطا[٥]، وأحذر من العَقْعَق[٦]، حتى يفارق الناس راحلاً إلى ربه تعالى، وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا، يُحِرز صاحبُها صفاء نيات ذوى النفوس السليمة، والعقود الصحيحة، البرآء من المكر والخديعة، ويحوى فضائل الأبرار، وسجايا الفضلاء،

---

(١) لطيف: رقيق.

(٢) لم أستطع أنا، ولا أحد غيرى، تحديد شخصية ابن حزم هذا، الذى يشير إليه.

(٣) الشرارة: الشر والسوء.

(٤) الخب: الخداع والغش.

(٥) القطا: واحده القطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء، ويتخذ أفحوصه فى الأرض، ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعة.

(٦) العقعق: طائر من الفصيلة الغرابية، يوصف بالحذر، ولا يأوى تحت سقف، والعرب تتشاءم به.

ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة، وتخلُّص الخبثاء ذوى النكراء والدهاء، وهى: أنْ تكتم سرَّ كلّ مَن وثق بك، وأنْ لا تُفشى إلى أحد من إخوانك، ولا مِن غيرهم، مِن سرِّك ما يمكنك طيَّه بوجه ما من الوجوه، وإنْ كان أخص الناس بك، وأن تفى لجميع من ائتمنك، ولا تأمن أحدًا على شىءٍ من أمرك تُشفِق عليه، إلاّ لضرورة لابد منها، فارتَدْ حينئذ واجتهد، وعلى الله تعالى الكفاية.

وابذلْ فضلَ مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ولكل مَن احتاج إليك وأمكنك نَفْعَه، وإنْ لم يعتمدك بالرغبة، ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عزّ وجلّ. ولا تَبْنِ إلاّ على أنّ مَن أحسنت إليه أوّلُ مُضِرٍّ بك، وساعٍ عليك، فإنّ ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كلَّ مَنْ أحسن إليهم إذا رأوْه فى أعلى مِن أحوالهم.

وعامِلْ كلَّ أحد فى الإنس أحسن معاملة، وأضمرْ السلوَّ عنه إنْ فات ببعض الآفات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى، تَعِشْ سالمًا مستريحا.

لا تنصحْ على شرط القبول، ولا تشفَعْ على شرط الإجابة، ولا تهبْ على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتأدية ما عليك من النصيحة، والشفاعة، وبذل المعروف.

حدُّ الصداقة الذى يدور على طرفى محدوده هو: أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر، ويسرّه ما يسرّه، فما سفل عن هذا فليس صديقا، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وقد يكون المرءُ صديقًا لمن ليس صديقه. وأما الذى يدخل فى باب الإضافة فهو المصادق، فهذا يقتضى فعلا من فاعلين، إذ قد يحبُّ الإنسان مَن يُبْغضه، وأكثر ذلك فى الآباء مع الأبناء، وفى الإخوة مع إخْوتهم، وبين الأزواج، وفيمن صارت محبَّته عشقا، وليس كلُّ صديق ناصحًا، لكن كلُّ ناصحٍ صديقٌ فيما نصح فيه.

وحدُّ النصيحة هو: أنْ يسوء المرءُ ما ضرّ الآخر، ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه، وأنْ يسرّه ما نفعه، سرَّ الآخرَ أو أساءه، فهذا شرط فى النصيحة زائد على شرط الصداقة.

وأقصى غايات الصداقة التى لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك، وآثرك على مَن سواك. ولولا أنى شاهدت مظفَّرًا ومباركا[1] صاحبى بلنسية لقدَّرْتُ أنّ هذا الخلق

(١) مبارك ومظفر: اثنان من الصقالبة، من موالى العامرين، توليا فى بلنسية وكالة الساقية (أى إدارة شئون الرى)، وجباية الضرائب، وكان عبد الرحمن بن ياسر واليا على المدينة، فلما سقطت الحجابة والخلافة، وقامت على أنقاضها دول الطوائف، نادى هذان الصقلبيان بنفسيهما أميرين على بلنسية بمساعدة أهلها، عام ٤٠١هـ - ١٠١٠م.

وقد جمعت بينهما صداقة حميمة، يصفها ابن بسام، نقلا عن ابن حيان المؤرخ: «ثم بلغ من سياسة هذين العبدين القدمين، مبارك ومظفر، فى مدة إمارتهما إلى أن=

معدوم فى زماننا، ولكنى ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تَأَتِّى الأحوالِ الموجبة للفرقة غيرهما.

ليس شيءٌ من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء، فإنّ ذلك فضيلة تامة متركِّبة، لأنهم لا يُكتسبون إلاّ بالحلم والجود، والصبر والوفاء والاستضلاع[1]، والمشاركة والعفة وحسن الدفاع، وتعليم العلم، وبكل حالة محمودة. ولسنا نعنى الشاكرية[2] والأتباع أيّام الحرمة، فأولئك لصوص الإخوان، وخَبَث الأصدقاء، والذين يُظَنُّ أنهم أولياء وليسوا كذلك، ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا نعنى أيضا المصادقين لبعض الأطماع، ولا المتنادمين على الخمر، والمجتمعين على المعاصى

= تقارضا من صحة الألفة فيها طول حياتهما، بما فاتنا فى معناهما أشقاء الأخوة، وعشاق الأحبة: فنزلا يومئذ معا فى سلطانهما قصر الإمارة مختلطين، يجمعها فى أكثر أوقاتها مائدة واحدة، ولا يتميز أحدهما عن الآخر فى عظيم ما يستعملانه، من كسوة وحلية وفراش ومركوب وآلة، ولا ينفردان إلا فى الحرم خاصة، على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر».

ويمكن الرجوع إلى تفصيلات حياتهما فى:

ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ونشره ليفى بروفنسال بعنوان تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ٢٢٢.

ابن بسام: الذخيرة، قسم ٣، م ١، ص ١٥ وما بعدها.

(١) الاستضلاع: الامتلاء.

(٢) الشاكرية: الأجراء والمستخدمون.

والقبائح، والمتألفين على النيل من أعراض الناس، والأخذ فى الفضول، وما لا فائدة فيه، فليس هؤلاء أصدقاء، ودليل ذلك أن بعضهم ينال من بعض، وينحرف عنه، عند فَقْد تلك الرذائل التى جمعتهم، وإنما نعنى إخوان الصفاء لغير معنى إلاّ لله عزّ وجلّ، إما للتناصر على بعض الفضائل الجدية، وإمّا لنفس المحبة المجّردة فقط.

ولكن، إذا أحصيْتَ عيوب الاستكثار منهم، وصعوبة الحال فى إرضائهم، والغرر[1] فى مشاركتهم، وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم، فإنْ غَدَرْتَ بهم، أو أسلمتهم، لَؤُمْتَ وذُممت، وإنْ وفَّيْتَ أضْررتَ بنفسك، وربما هَلِكْت، وهذا الذى لا يرضى الفاضل بسواه إذا تنشَّبَ[2] فى الصداقة، وإذا تفكَّرتَ فى الهم بما يعرض لهم وفيهم، من موت أو فراق أو غدر مَن يغدر منهم، كادَ السرور بهم لا يفى بالحزن الممض[3] من أجلهم.

وليس فى الرذائل أشبه بالفضائل من محبّة المدح، ودليل ذلك أنه فى الوجه سُخْفٌ ممن يرضى به، وقد جاء فى الأثر فى المدّاحين ما جاء، إلاّ أنه قد يُنْتَفع به فى الإقصار عن الشرّ، والتزيُّد من الخير،

(١) الغرر: الخطر، والتعريض للتهلكة.

(٢) تنشّب: تعلّق.

(٣) الممض: المؤلم، الموجع.

وفى أنْ يرغب فى ذلك الخُلُق الممدوح مَن سمعه.

ولقد صحّ عندى أن بعض السائسين للدنيا لقى رجلاً من أهل الأذى للناس، وقد قُلِّدَ بعض الأعمال الخبيثة، فقابله بالثناء عليه، وبأنه قد سمع شُكْرَه مستفيضا، ووَصْفَهُ بالجميل والرفق منتشرا، فكان ذلك سببًا إلى إقصار ذلك الفاسق عن كثير من شرّه.

بعض أنواع النصيحة يَشْكُلُ تمييزه من النميمة، لأنّ من سمع إنسانا يذمّ آخر ظالمًا له، أو يكيده ظالمًا له، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالمًا مذموما. ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربّما قد وَلَّدَ على الذامّ والكائد ما لم يبلغه استحقاقه بعدُ من الأذى، فيكون ظالمًا له، وليس من الحق أنْ يقتصّ من الظالم بأكثر من قَدْر ظلمه، فالتخلُّص من هذا الباب صعب إلاّ على ذوى العقول. والرأى للعاقل فى مثل هذا أنْ يحفظ المقول فيه من القائل فقط، دون أن يبلِّغه ما قال، لئلا يقع فى الاسترسال زائد فيهلك.

وأمّا فى الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذى يُكاد منه، بألطف ما يقدر فى الكتمان على الكائد، وأبلغ ما يقدر فى تحفيظ[1] المكيد، ولا يزد على هذا شيئًا.

وأما النميمة فهى التبليغ لما سمع، مما لا ضرر فيه على المبلّغ إليه، وبالله التوفيق.

---

(١) تحفيظ: تقييد.

النصيحة مرتان: فالأولى فرضٌ وديانة، والثانية تنبيهٌ وتذكير، وأما الثالثة فتوبيخٌ وتقريع، وليس وراء ذلك إلاّ التركُّل واللطام[1]، وربّما أرشدُ من ذلك من البغي والأذى، اللهم إلاّ في معاني الديانة، فواجب على المرء تَزْدَادُ النصح فيها، رَضِيَ المنصوحُ أو سخط، تأذَّى الناصح بذلك أو لم يتأذّ.

وإذا نصحت فانصح سرًّا لا جهرا، وبتعريض لا تصريح، إلاَّ أنْ لا يفهم المنصوح تعريضك فلابدّ من التصريح. ولا تنصح على شَرْط القبول منك. فإن تعدّيتَ هذه الوجوه فأنت ظالمٌ لا ناصح، وطالب طاعة ومُلْكٍ لا مؤدِّى حق أمانة وأخوّة، وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيّد مع عبيده.

لا تكلف صديقك إلاَّ مثل ما تبذل له من نفسك، فإنْ طلبتَ أكثر فأنت ظالم.

ولا تكسبْ إلاّ على شرْط الفقد.

ولا تتولَّ إلاّ على شرط العزل، وإلاَّ فأنت مضرٌّ بنفسك، خبيث السيرة.

مسامحةُ أهلِ الاستئثار والاستغنام، والتغافل لهم، ليس مروءةً ولا فضيلة، بل هو مهانةٌ وضعف وتضرية[2] لهم على التمادى على

---

(١) التركل واللطام: التركل الرفس بالرجل، واللطام الصفع باليد على الوجه.
(٢) تضرية: ضرى بالشيء، إذا لزمه، وأولع به، أو اعتاده واجترأ عليه.

ذلك الخلق المذموم، وتغبيطٌ[1] لهم به، وعونٌ لهم على ذلك الفعل السوء، وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف المبادرين إلى الإنصاف والإيثار، فهؤلاء فرض على أهل الفضل أنْ يعاملوهم بمثل ذلك، لاسيما إن كانت حاجتهم أمسّ، وضرورتهم أشدّ.

فإنْ قال قائل: فإذا كان كلامُك هذا موجبًا لإسقاط المسامحة، والتغافل للإخوان، فيه استوى الصديق والعدو والأجبنى فى المعاملة، فهذا فساد ظاهر.

فنقول، وبالله التوفيق، كلامًا لا[2] يحض إلاّ على المسامحة، والتغافل والإيثار ليس لأهل التغنُّم[3]، لكن للصديق حقا، فإن أردت معرفة وجه العمل فى هذا، والوقوف على نهج الحق، فإنّ القصة التى توجب الأثرة من المرء على نفسه صديقَه، ينبغى لكل واحد من الصديقين أن يتأمَّل ذلك الأمر، فأيُّهما كان أمسَّ حاجة فيه، وأظهر ضرورة لديه، فحكم الصداقة والمروءة تقتضى للآخر، وتوجب عليه أن يؤثر على نفسه فى ذلك، فإنْ لم يفعل فهو متغِّنمٌ مُسْتكْثِرٌ، لا ينبغى أن يُسامَح البتة، إذ ليس صديقًا ولا أخًا، فأمّا

---

(١) تغبيط: تجبيب وتحسين.

(٢) لفظ «لا» ساقط فى نسخة المحمصانى، وأراه خطأ مطبعيا، لأن المعنى لا يستقيم بدونه، وموجود فى المطبوعات الأخرى التى لا تنقل عن نسخته.

(٣) أهل التغنم: الذين يحرصون على الشىء كما يحرصون على الغنيمة، ويطلبونه بلا مشقة.

إذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما فحقُّ الصداقة ها هنا أن يسارع كل واحد منهما إلى الإثرة على نفسه، فإن فعلا ذلك فهما صديقان، وإن بَدَرَ أحدهما ولم يبادر الآخر إليه، فإن كانت عادته هذه فليس صديقا، ولا ينبغي أن يعامل معاملة الصداقة، وإن كان قد يبادر هو أيضا إلى مثل ذلك في قصة أخرى فهما صديقان.

من أردْتَ قضاء حاجته بعد أن سألك إيّاها، أو أردت ابتداءه بقضائها، فلا تعمل له إلاّ ما يريد هو، لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإنْ تعدّيتَ هذا كنت مسيئًا لا محسنا، ومستحقًا للّوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضيا للعداوة لا للصداقة.

لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأرذال، ولا تكتمه ما يستضرّ بجهله، فهذا فعل أهل الشرّ، ولا يسرّك أنْ تُمْدَحَ بما ليس فيك، بل ليعظمْ غمُّك بذلك، لأنّه نَقْصُك ينبِّهُ الناس عليه، ويسمعهم إيّاه، وسخريّة منك، وهزؤٌ بك، ولا يرضى بهذا إلاّ أحمقٌ ضعيف العقل.

ولا تأسَ إنْ ذُمِمْتَ بما ليس فيك، بل افرح به، فإنّه فَضْلُك يُنَبِّهُ الناسُ عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح، وسواء مُدِحْتَ به أو لم تُمْدَح، واحزنْ إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواءٌ ذُمِمْتَ به أو لم تذم.

مَن سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا، لا سيمّا إذا كان القائل عيّابة، وقّاعًا فى الناس، سليط اللسان، أو دَافعُ معَّرةٍ عن نفسه، يريد أن يكثر أمثالُه فى الناس، وهذا كثير موجود.

وبالجملة فلا يحدِّث الإنسان إلاَّ بالحق، وقوْلُ هذا القائل لا يُدرى أحقٌّ هو أم باطل، إلاّ أنّه فى الديانة عظيم. فإنْ سَمِعَ القول مستفيضًا من جماعة، وعلم أن أصل ذلك القول شائع، وليس راجعًا إلى قول إنسان واحد، أو اطلع على حقيقته إلاّ أنّه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما وقف عليه هو، فليخبره بذلك بَيْنه وبينه فى رفق، وليقلْ له: النساء كثير، أو حصّن منزلك، وثقِّف أهلك، أو اجتنب أمرًا كذا، وتحفَّظْ من وجهٍ كذا، فإنْ قَبلَ المنصوح وتحرّز فحظَّ نفسه أصاب، وإن رآه لا يتحفَّظ ولا يبالى أَمسك، ولم يعاوده بكلمة، وتمادى على صداقته إيّاه، فليس فى أنْ لا يصدّقه فى قوله ما يوجب قطيعته، فإنْ اطلع على حقيقته، وقدر أن يوقف صديقه على مثل ما وقف عليه هو من الحقيقة، فَفَرْضٌ عليه أن يخبره بذلك، وأنْ يوقفه على الجليّة، فإنْ غيَّر فذلك، وإن رآه لا يُغَيِّر اجتنب صحبته، فإنه رَذْلٌ لا خير فيه ولا نقيّة[1].

ودخولُ رجلٍ مُتَستِّرٍ فى منزل المرء دليلُ سوء لا يحتاج إلى

(١) النقية: الخيار.

غيره، ودخول المرأة فى منزل رجل على سبيل التستُّرِ مثل ذلك أيضا. وطَلَبُ دليلٍ أكثر من هذين سُخْفٌ، وواجبٌ أن يجتنب مثل هذه المرأة، وفراقُها على كل حال، ومُمْسِكُها لا يبعد عن الدياثة[1].

الناس فى أخلاقهم على سبع مراتب:

فطائفةٌ تمدح فى الوجه، وتذمّ فى المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيّابين، وهذا خُلُقٌ فاشٍ فى الناس، غالبٌ عليهم.

وطائفة تذمّ فى المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة[2] والوقاحة من العيّابين.

وطائفة تمدح فى الوجه والغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع.

وطائفة تذم فى المشهد، وتمدح فى المغيب، وهذه صفة أهل السخف والنواكة[3].

وأمّا أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهدة، ويثنون بالخير فى المغيب، أو يمسكون عن الذم.

وأمّا العيّابون البرآءُ من النفاق والقحة[4] فيمسكون فى المشهد، ويذمون فى المغيب.

---

(١) الدياثة: الديوث من الرجال القوّاد على أهله، أو الذى لا يغار عليهم ولا يخجل.

(٢) السلاطة: الرجل السليط الطويل اللسان، الحاد الشديد.

(٣) النواكة: الحماقة.

(٤) القحة: اللؤم.

وأمّا أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد والمغيب.

ومِن كلٍّ مِن أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا.

إذا نصحتَ فى الخلاء، وبكلام لّين، ولا تسند سبّ مَن تُحدّثه إلى غيرك فتكون نمّاما، فإن خَشَّنْت كلامك فى النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «لا تُنَفِّروا». وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم، ولعلك مخطئ فى وجه نصحك، فتكون مطالبا بقبول خطئك وبترك الصواب.

لكل شيء فائدة، ولقد انتفعتُ بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمة، وهى أنّه توقَّد طبعى، واحتدم خاطرى، وحمى فكرى، وتهيّج نشاطى، فكان ذلك سببا إلى تواليف لى، عظيمة المنفعة، ولولا استثارتهم ساكنى، واقتداحهم كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف[2].

(١) سورة طه، الآية ٤٤.
وتشير الآية إلى سفارة قام بها موسى وأخوه هارون إلى فرعون مصر ليتحدثا باسم شعب إسرائيل.

(٢) يشير بهذه الفقرة، دون أدنى شك، إلى مؤلفاته العظيمة فى مجال الفقه والتشريع، وجاءت وليدة الجدل الصاخب، والحوار العنيف، مع خصومه ومعارضيه.

لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه، فما رأينا هذين العملين إلاّ سببا للقطيعة، وإن ظنّ أهل الجهل أنّ فيهما تأكيدا للصلة فليس كذلك لأن هذين العقدين داعيان كلّ واحد إلى طلب حظ نفسه، والمؤثرون على أنفسهم قليل جدا، فإذا اجتمع طلب كلِّ امرىءٍ حظ نفسه وقعتْ المنازعة، ومع وقوعها فساد المروءة، وأسلمُ المصاهرة مغبّةً مصاهرة الأهلين بعضهم بعضا، لأنّ القرابة تقتضى العدل وإنْ كرهوه، لأنّهم مضمرون إلى ما لا انفكاك لهم منه، من الاجتماع فى النسب الذى توجب الطبيعة لكل أحد الذبّ[1] عنه، والحماية له.

❑❑❑

(١) الذب: الدفاع.

(٦)

فصل فى أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفى أنواعها:

المحبة كلها جنس واحد. ورسمها أنها الرغبة فى المحبوب، وكراهة منافرته، والرغبة فى المقارضة منه بالمحبة، وإنّما قدّر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنمّا اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها، وضعفها أو انحسامها، فتكون المحّبة لله عزّ وجلّ وفيه، وللاتفاق على بعض المطالب، وللأب والابن، والقرابة والصديق، وللسلطان، ولذات الفراش، وللمحسن، وللمأمول، وللمعشوق. فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه، كما وصفتُ لك، على قَدْر الطمع فيما ينال من المحبوب، فلذلك اختلفتْ وجوه المحبة.

وقد رأينا من مات أسفًا على ولده، كما يموت العاشق أسفا على معشوقه، وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات.

ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه، كما يغار على ذات فراشه، وكما يغار العاشق على معشوقه. فأدنى أطماع المحبة ممن

تحب الحظوةُ منه، والرفعة لديه، والزُّلْفة[1] عنده، إذا لم تطمع في أكثر، وهذه غاية أطماع المحبين لله عزّ وجلّ، ثم يزيد الطمع في المجالسة، ثم في المحادثة والموازرة، وهذه أطماع المرء في سلطانه، وصديقه، وذوي رحمه.

وأقصى أطماع المحب ممن يحب المخالطة بالأعضاء، إذا رجا ذلك، ولذلك تجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في جماعها على هيآت شتى، وفي أماكن مختلفة، ليستكثر من الاتصال. ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل، وقد يقع بعض هذا الطمع في الأب في ولده، فيتعدَّى إلى التقبيل والتعنيق.

وكل ما ذكرنا إنما هو على قدر الطمع، فإذا انحسم الطمع عن شيء ما، لبعض الأسباب الموجبة له، مالت النفس إلى ما تطمع فيه.

ونجد المقر بالرؤية لله عزّ وجلّ شديد الحنين إليها، عظيم النزوع نحوها، لا يقنع بدرجة دونها لأنه يطمع فيها، وتجد المنكر لها لا تحنّ نفسه إلى ذلك، ولا يتمنّاه أصلا، لأنه لا يطمع فيه، وتجده يقتصر على الرضا والحلول في دار الكرامة فقط، لأنه لا تطمع نفسه في أكثر[2].

---

(١) الزلفة: القربة والمنزلة.

(٢) اختلف علماء المسلمين حول رؤية الله تعالى. فأهل السنة يجيزونها، وينكرها المعتزلة، وآخرون قلة من فرق لا تنتسب إليهم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾، وهم يمثلون الطرف الأقصى المقابل للمجسمة، ويرون أن رؤية الله ممكنة في الدنيا والآخرة. =

ونجد المستحلّ لنكاح القرائب لا يقنع منهنّ بما يقنع المحرِّم لذلك، ولا تقف محبّته حيث تقف محبّة من لا يطمع فى ذلك، فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود، لا يقف من محبتهما حيث تقف محبة المسلم، بل نجدهما يتعشّقان الابنة وابنة الأخ، كتعشّق المسلم فيمن يطمع فى مخالطته بالجماع. ولا نجد مسلما يبلغ ذلك فيهما، ولو أنهما أجمل من الشمس، وكان هو أعهر الناس وأغزلهم، فإن وُجِدَ ذلك فى الندرة، فلا تجده إلاّ من فاسد الدين، قد زال عنه ذلك الرادع، فانفسح له الأمل، وانفتح له باب الطمع[1].

= وقد حدد ابن حزم وجهة نظر أهل السنة فى كتابه «الفصل»، ج ٣ ص ٢، وما بعدها، فهو ينكر الرؤية المادية، ولكنه على النقيض من المعتزلة يرى إمكان الرؤية الروحية. وإليك كلماته بنصها:

«وإنما قلنا إنه تعالى يرى فى الآخرة بقوة غير هذه القوة الموضوعة فى العين الآن، لكن بقوة موهوبة من الله تعالى، وقد سماها بعض القائلين بهذا القول الحاسة السادسة، وبيان ذلك أننا نعلم الله عز وجل بقلوبنا علمًا صحيحًا، هذا ما لا شك فيه، فيضع الله تعالى فى الأبصار قوة تشاهد بها الله، وترى بها، كالتى وضع فى الدنيا فى القلب، وكالتى وضعها الله عزّ وجل فى أذن موسى ﷺ، حتى شاهد الله وسمعه».

ويرد على المعتزلة بأن الله نفى الإدراك، وهو معنى زائد على النظرة والرؤية، وهو معنى الإحاطة، فالإدراك منفى عن الله فى الدنيا والآخرة.

(١) خضع الزواج من الأقارب فى الحضارات القديمة للعادات والتقاليد، ولا دخل للغرائز نفسها فى شىء من هذا. فأباح العبرانيون والفنينقيون، واليونان، وقدماء الميديون، والفرس، وبعض عشائر العرب فى الجاهلية، وفى مصر القديمة، أن يتزوج الأب بابنته، والأخ بأخته. =

ولا يُؤمَن مِن المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه حتى تصير عشقا، وحتى تتجاوز محبّته لها محبّته لابنته وابنة أخيه، وإن كانتا أجمل منها، لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه.

ونجد النصرانى قد أمن ذلك من نفسه فى ابنة عمه أيضا، لأنه لا يطمع منها فى ذلك، ولا يأمن ذلك من نفسه فى أخته من الرضاعة، لأنه طامعٌ بها فى شريعته.

= وكان المسيحيون الذين يقيمون فى فارس قديمًا يسيرون على سنة الفرس، وفتح لهم زرادشت الباب واسعًا فيما يتصل بالعلاقات الجنسية، وكل ما أوصى به فى هذا المجال أن يتعفف الناس عن الأعمال المنافية للطبيعة، ورغم أن الرهبان، والمجامع المسكونية كانت تمنع نصًا زواج الآباء ببناتهم وحفيداتهم، إلاّ أن الغلبة كانت للواقع والعادة، فلم يستجب لها المسيحيون فى فارس.

وظل اليهود الربانيون حتى يومنا هذا يبيحون زواج المرء بعمته وخالته، ولو أن زواج الأخ بأخته لأبيه، وكان مباحًا فى شريعتهم من قبل، بدأ يتلاشى واقعًا، ويمنع اليهود القراءون الآن كل ألوان الزواج هذه.

أما الإسلام فقد رسم منذ البدء منهجًا محددًا ودقيقًا لهذه العلاقة، فحرم الزواج بعدد من المحارم كان الزواج منهن مباحا فى العادات والشرائع السابقة عليه، وجمع ذلك فى الآية ٢٣، من سورة النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾.

• انظر: د. على عبد الواحد وافى: الأسرة والمجتمع، ص ٢٩ وما بعدها، القاهرة، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

فَلاَحَ بهذا عيانًا ما ذكرنا مِن أنّ المحبة كلها جنس واحد، لكنّها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها، وإلاّ فطبائع البشر كلهم واحدة، إلاَّ أن للعادة والاعتقاد الدينى تأثيرًا ظاهرا.

ولسنا نقول إن الطمع له تأثير فى هذا الفن وحده، لكنّا نقول: إنّ الطمع سبب إلى كل همّ، حتى فى الأموال والأحوال، فإننا نجد الإنسان يموت جاره، وخاله، وصديقه، وابن عمته، وعمه لأم، وابن أخيه لأم، وجدُّه أبو أمه، وابن بنته، فإذ لا مطمع له فى ماله ارتفع عنه الهمّ، لفوْته عن يده، وإنْ جلَّ خطره، وعَظُم مقداره، فلا سبيل إلى أن يمّر الاهتمام لشىء منه بباله، حتى إذا مات له عصبة على بُعْد، أو مولى على بُعْد، وحدث له الطمع فى ماله حدث له من الهم، والأسف، والغيظ، والفكرة بفوْت اليسير منه عن يده، أمرٌ عظيم.

وهكذا فى الأحوال، فنجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لإنفاذ غيره أمور بلده دون أمره، ولا لتقريب غيره وإبعاده، حتى إذا حدث له مطمع فى هذه المْرتَبَة حدث له من الهم، والفكرة، والغيظ، أمرٌ ربما قاده إلى تلف نفسه، وتلف دنياه وأخراه.

فالطمع إذًا أصلٌ لكل ذلّ، ولكل همّ، وهو خلق سوء ذميم، وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة، مركبّة من النجدة والجود، والعدل والفهم، لأنّه رأى قلَّةَ الفائدة فى استعمال ضدها

فاستعملها، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزّة نفسه فتنزّه، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته، وكانت فيه طبيعة عدل حبّبت إليه القناعة وقلّة الطمع.

فإذن، نزاهة النفس متركِّبة من هذه الصفات، فالطمع الذى هو ضدها متركِّبٌ من الصفات المضادة لهذه الصفات الأربع، وهى: الجبن، والشحّ، والجور، والجهل. والرغبة طمعٌ مستوفىً متزايد مُستَعْمَل، ولولا الطمع ما ذلَّ أحدٌ لأحد. وأخبرنى أبو بكر بن أبى الفياض قال: كتب عثمان بن مُحامس[1] على باب داره بإسْتِجّة[2]: يا عثمان لا تطمع!.

---

(١) عثمان بن محمد بن محاسن، أبو سعيد، زاهد وصوفى ومتكلم، من أستجه، عالم بأخبار الدهور، وتوفى عام ٣٥٦هـ – ٩٦٦م. وكان ابنه محمد من شعراء الخليفة الحكم الثانى. انظر:

• ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، الترجمة ٩٠١، طبعه الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.

• الضبى: بغية الملتمس: الترجمة ١١٩٣م، طبعة مدريد.

• ابن حيان، المقتبس، ص ٦٢ و ١٦٠، القطعة التى نشرها الدكتور عبد الرحمن حجى.

(٢) إستجة Ecija: مدينة قديمة، تقع الآن فى محافظة إشبيلية، وكانت قديمًا مستعمرة رومانية، ثم ازدهرت فى العصر الإسلامى. انظر:

• الحميرى: الروض المعطار، القطعة التى نشرها منه لينفى بروفنسال بعنوان: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٤ – ١٥، القاهرة ١٩٣٧م.

• **فصول من هذا الباب:**

من امتُحِنَ بقرْب من يكره، كمن امتحن ببعد مَن يحبّ، ولا فرق.

إذا دعا المحب في السلوّ فإجابته مضمونة، ودعوته مجابة.

إقنع بمن عندك، يقنع بك من عندك.

السعيد في المحبة هو من ابتُلِيَ بمن يقدر أن يُلقِي عليه قفله، ولا تلحقه في مواصلته تَبِعَةٌ من الله عزّ وجلّ، ولا ملامة من الناس، وصلاح ذاك أنْ يتوافقا في المحبة، وتحريره أن يكونا خاليين من الملل، فإنّه خُلُق سوءٍ مبغّض، وتمامُه نَوْمُ الأيام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض، وأنىَّ بذلك إلاّ في الجنّة. وأمّا ضمانه بيقين فليس إلاّ فيها، فهي دار القرار، وإلاّ فلو حصل ذلك كله في الدنيا لم تؤمن الفجائع، ولقطع العمر دون استيفاء اللذة.

إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة.

الغيرة خُلُقٌ فاضل متركِّب من النجدة والعدل، لأنّ من عَدَل كرِه أن يتعدَّى إلى حُرْمة غيره، وأن يتعدَّى غيره إلى حرمته، ومن كانت النجدة طبعًا له حدثتْ فيه عِزَّة، ومن العزّة تحدثُ الأَنَفَةُ من الاهتضام.

أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه أنّه ما عرف الغيرةَ قط حتى ابتِلىَ بالمحبة فغار، وكان هذا المخبر فاسدَ الطبع، خبيثَ التركيب، إلاّ أنه كان من أهل الفهم والجود.

• **دَرْجُ المحبة خمسة:**

أولها الاستحسان، وهو أن يتمثّل الناظُر صورةَ المنظور إليه حسنةً، أو يستحسن أخلاقه، وهذا يدخل فى باب التصادق.

ثم الإعجاب به، وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه، وفى قربه.

ثم الأُلْفَة، وهى الوحشة إليه إذا غاب.

ثم الكَلَفُ، وهو غَلَبة شَغْل البال به، وهذا النوع يسمى باب الغزل بالعشق.

ثم الشّغَف، وهو امتناع النوم، والأكل، والشرب، إلاّ اليسير من ذلك، وربّما أدى ذلك إلى المرض، أو إلى التوسْوُس، أو إلى الموت، وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا.

• **فصل:**

كنا نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو فى الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بَلَهًا.

❑❑❑

(٧)
فصل فى أنواع صباحة الصور

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها فقلت:

الحلاوة رقَّة المحاسن، ولُطْف الحركات، وخِفَّة الإشارات، وقبول النفس لأعراض الصور، وإنْ لم تكن ثَمَّ صفات ظاهرة.

القوام: جمال كل صفة على حدتها، وربّ جميل الصفات، على انفراد كل صفة منها، بارد الطلعة غير مليح، ولا حسن، ولا رائع، ولا حلو.

الروعة: بهاء الأعضاء الظاهرة مع جمال فيها، وهى أيضا الفراهة[1] والعتق[2].

الحسْنُ: هو شىء ليس له فى اللغة اسم يعبر به عنه، ولكنه محسوس فى النفوس باتفاق كل من رآه، وهو بُرْدٌ مكسوّ على الوجه، وإشراقٌ يستميل القلوب نحوه، فتجتمع الآراء على استحسانه، وإن لم تكن هناك صفات جميلة، فكل من رآه راقه، واستحسنه، وقبله، حتى إذا تأمّلتَ الصفات أفرادًا لم تر طائلا، وكأنه شىء فى

(١) الفراهة: الملاحة والحسن، أو المهارة والحذق.

(٢) العتق: النجابة.

نفس المرئى يجده نفس الرائى، وهذا أجلّ مراتب الصباحة. ثم تختلف الأهواء بعد هذا، فمن مفضل للروعة، ومن مفضل للحلاوة، وما وجدنا أحدًا قط يفضل القوام المنفرد.

الملاحة: اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا.

❑❑❑

(٨)
فصل فيما يتعامل الناس به وفى الأخلاق

التلوُّنُ المذموم هو التنقُّل من زيٍّ مُتَكَلَّف لا معنى له، إلى زيٍّ آخر مثله فى التكلّف، وفى أنه لا معنى له، ومن حال لا معنى لها إلى حال لا معنى لها بلا سبب يوجب ذلك.

وأمّا من استعمل من الزى ما أمكنه، مما به إليه حاجة، وتَرَك التزُّيد مما لا يحتاج إليه، فهذا عَيْنٌ من عيون العقل والحكمة كبير.

وقد كان رسول الله ﷺ وهو القدوة فى كل خير، والذى أثنى الله تعالى على خلقه، والذى جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها، وأبعده عن كل نقص، يعود المريضَ مع أصحابه راجلا، فى أقصى المدينة، بلا خُفٍّ، ولا نعل، ولا قَلَنْسُوَة[١]، ولا عمامة، ويلبس الشعرَ إذا حضره، وقد يلبس الوشْىَ[٢] من الحبرات[٣] إذا

(١) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

(٢) الوشى: نقش الثوب، ويكون من كل لون.

(٣) الحبرات: جمع حبرة، ثوب من قطن أو كتان، مخطط، كان يصنع باليمن، وملاءة من الحريرة كانت ترتديها النساء بمصر حين خروجهن.

حضره، ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه، ولا يترك ما يحتاج إليه، ويستغنى بما وجدة عما لا يجد، ومرة يمشى راجلاً حافيًا، ومرة يلبس الخفَّ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء، ومرة يركب الفرسَ عُرْيًا، ومرة يركب الناقةَ، ومرة يركب حمارًا، ويردف عليه بعضَ أصحابه، ومرّة يأكل التمَر دون خبز، والخبزَ يابسا، ومرة يأكل العَنَاق[1] المشوِيَّةَ، والبطيخ بالرطب والحلواء، يأخذ القوتَ ويبذل الفضل، ويترك ما لا يحتاج إليه، ولا يتكلّف فوق مقدار الحاجة، ولا يغضب لنفسه، ولا يدع الغضبَ لربِّه عزّ وجلّ.

الثباتُ الذى هو صحة العقد، والثبات الذى هو اللجاج[2]، مشتبهان اشتباهًا لا يفرق بينهما إلاّ عارف بكيفية الأخلاق. والفرق بينهما أنّ اللجاج هو ما كان على الباطل، أو ما فعله الفاعلُ نصرًا لما نَشِبَ[3] فيه، وقد لاح له فساده، أو لم يَلُحْ له صوابه ولا فساده، وهذا مذموم وضده الإنصاف.

وأما الثبات الذى هو صحة العقد فإنما يكون على الحق، أو على ما اعتقده المرء حقا، ما لم يلح له باطله، وهذا محمود وضده الاضطراب.

---

(١) العناق: الأنثى من أولاد المعيز والغنم، من حين الولادة إلى تمام حول.
(٢) اللجاج: الملازمة، والإلحاح.
(٣) نشب: علق.

وإنّما يلام بعض هذين لأنّه ضيّع تَدبُّر ما ثبتَ عليه، وتركَ البحثَ عما التزم، أحقٌّ هو أم باطل.

حدُّ العقلِ استعمالُ الطاعات والفضائل، وهذا الحد ينطوى فيه اجتناب المعاصى والرذائل، وقد نص الله تعالى فى غير موْضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل، قال الله تعالى حاكيا عن قوم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾. ثم قال تعالى مُصدِّقًا لهم: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[1].

وحدُّ الحُمْقِ استعمال المعاصى والرذائل. وأمّا لتعدِّى، وقَذْفُ الحجارة، والتخليط فى القول، فإنما هو جنون ومِرَار[2] هائج.

وأما الحمقُ فهو ضد العقل، وهما ما بَّينا آنفًا، ولا واسطة بين العقل والحمق إلاّ السُّخْف.

وحدُّ السخْفِ هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه فى دين ولا دنيا، ولا حميد خُلُقٍ، مما ليس معصية ولا طاعة، ولا عونًا عليهما، ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية، ولكنه مِن هَذَر القوْل، وفضول العمل، فعلى قَدْر الاستكثار مِن هذين الأمرين، أو التقلُّل

(١) سورة الملك، الآيتان رقم ١٠، ١١.

(٢) المرار: جمع مرة، خلط من أخلاط البدن، وهو المسمىَّ: المزاج.

منهما، يستحق المرءُ اسمَ السخف، وقد يَسْخَفُ المرء فى قصة، ويَعْقِل فى أخرى، ويحمُق فى ثالثة.

وضدُّ الجنون تمييزُ الأشياء، ووجود القوة على التصرُّف فى المعارف والصناعات، وهذا الذى يسميه الأوائلُ النطقَ، ولا واسطة بينهما[1].

وأمّا إحكام أمر الدنيا، والتودُّد إلى الناس بما وافقهم، وصَلُحتْ عليه حالُ المتودِّد من باطل أو غيره، أو عيْب أو ما عداه، والتحيُّل فى إنماء المال، وبُعْدُ الصوْت، وتسبيب الجاه بكلّ ما أمكن من معصية ورذيلة فليس عقلا.

ولقد كان الذين صدقهم اللهُ فى أنّهم لا يعقلون، وأخبرنا بأنهّم لا يعقلون، سائسين لدنياهم، مُثمرين لأموالهم، مدارين لملوكهم، حافظين لرياستهم، لكن هذا الخلُق يسمَّى الدهاء، وضده العقل والسلامة.

وأما إذا كان السعْىُ فيما ذكرنا بما فيه تصاوُن وأنفة فهو يسمَّى الحزم، وضده المنافى له التضييع.

---

(١) يشير ابن حزم هنا بكلمة «الأوائل» إلى فلاسفة الإغريق، فيما يبدو لى، ويعنى بكلمة «النطق» ما تعنيه الكلمة اليونانية وهى مزدوجة المعنى، وتعنى عند الفلاسفة المسلمين ما تعنيه عند زملائهم من فلاسفة اليونان، وهو: اللفظ بالقول، وإدراك الكليات.

ومن المهم أن نشير إلى أن ابن حزم، كما فى هذه الفقرة، لا يسمح بحالة وسط بين رذيلة الجنون وفضيلة الفهم، على نحو ما عليه الحال فى بقية الفضائل الأخرى، والاتجاه نفسه نجده عند أرسطو أيضا.

وأما الوقار ووضع الكلام موضعه، والتوسُّط في تدبير المعيشة، ومسايرة الناس بالمسالمة، فهذه الأخلاق تُسمَّى الرزانة، وهي ضد السخف.

الوفاء مركَّبٌ من العدل والجود والنجدة، لأنّ الوفيّ رأى من الجور أن لا يقارض من وثق به، أو من أحسن إليه، فعدَلَ في ذلك، ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدمُ الوفاء من الحظ فجادَ في ذلك، ورأى أن يتجلّد لما يتوقّع من عاقبة الوفاء فشجُعَ في ذلك.

أصول الفضائل كلها أربعة، عنها تتركب كل فضيلة، وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود.

أصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد التي ذكرنا، وهي: الجور، والجهل، والجبن، والشح.

الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود.

النزاهة في النفس فضيلة تركّبت من النجدة والجود وكذلك الصبر.

الحُلْم نوعٌ مفرد من أنواع النجدة.

القناعة فضيلة مركَّبةٌ من الجود والعدل.

الحِرْصُ متولِّدٌ عن الطمع، والطمع متولِّدٌ عن الحسد، والحسدُ متولِّد عن الرغبة، والرغبة متولِّدةٌ عن الجور والشحِّ والجهل.

ويتولَّدُ من الحرص رذائل عظيمة، منها: الذل، والسرقة، والغَصْبُ، والزنا، والقتل، والعشق، والهمُّ بالفقر. والمسئلةُ لما بأيدي الناس تتولّد فيما بين الحرص والطمع، وإنما فرّقنا بين

الحرص والطمع لأن الحرص هو بإظهار ما استكن فى النفس من الطمع، والمداراة فضيلة متركبةٌ من الحلم والصبر.

الصدقُ مركَّبُ من العدل والنجدة، ومن جاء إليك بباطل رجع من عندك بحق. وذلك أنّ من نقل إليك كَذِبًا عن إنسانٍ حرَّكَ طبعَكَ فأجبته، فرجع عنك بحق، فتحفَّظْ مِن هذا، ولا تُجبْ إلاَّ عن كلام صَحَّ عندك عن قائله.

لا شيءَ أقبح من الكذب، وما ظنُّك بعيب يكون الكفر نوعًا من أنواعه، فكلّ كُفْرٍ كذبٌ، فالكذبُ جنسٌ، والكُفْر نوعٌ تحته. والكذب متولِّدٌ من الجَورِ والجبن والجهل، لأنّ الجُبْنَ يُولّد مهانة النفس، والكذَّابُ مَهينُ النفس، بعيد عن عِزَّتها المحمودة[1].

رأيتُ الناسَ فى كلامهم الذى هو فَصْلٌ بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساما ثلاثة:

أحدهما مَن لا يبالى فيما أنفق كلامه، فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه، غير مُحَقِّق نَصْر حق، ولا إنكار باطل، وهذا هو الأغلب فى الناس.

---

(١) عرض ابن حزم لموقفه الشخصى من الكذب فى كتابه «طوق الحمامة»، وكتبه فى زهوة شبابه، ولم يتراجع عنه وهو يحرر هذه الرسالة فى أخريات أيامه. قارن بين هذين الموقفين بالرجوع إلى:

- طوق الحمامة، ص ٨٥، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٠م.
- د. الطاهر أحمد مكى: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧م.

والثانى أنْ يتكلم ناصرًا لما وقع فى نفسه أنّه حق، ودافعًا لِمَا توهَّمَ أنَّه باطل، غير مُحَقِّقٍ لطلب الحقيقة، لكن لجاجًا فيما التزم، وهذا كثير، وهو دون الأول.

والثالث واضعُ الكلامِ فى موضعه، وهذا أعزُّ من الكبريت الأحمر[1].

لقد طالَ هَمُّ مَن غَاظَه الحقُّ.

اثنان عَظُمَتْ راحتهما، أحدهما فى غاية المدح، والآخر فى غاية الذِّم، وهما: مُطَّرِحُ[2] الدنيا، ومطَّرِحُ الحياء.

لو لم يكن من التزهيد فى الدنيا إلاّ أنّ كل إنسان فى العالم فإنّه كل ليلة إذا نام نسى كلَّ ما يشْفق عليه فى يقظته، وكل ما يُشْفق منه، وكل ما يشره[3] إليه، فتجده فى تلك الحال لا يذكر ولدًا، ولا أهلاً، ولا جاهًا، ولا خمولاً، ولا ولاية، ولا عُزْلةً، ولا فقرا، ولا غنى، ولا مصيبة، وكفى بهذا واعظا لمن عقل.

---

(١) سار الكميائيون العرب فى العصر الوسيط على خطى أرسطو، فهم يقسمون الكبريت إلى أنواع ثلاثة: أحمر وأبيض وأصفر، والأول أندرها، لأنه، فيما يزعمون – يوجد فى مناجم فى أرض بعيدة تقع عند مغرب الشمس، قريبا من المحيط، أو خلف التبت بوادى النمل، ومن هنا كانت ندرته، ومضرب المثل به.

(٢) مطرح: تارك.

(٣) يشره: يطمع.

من عجيب تدبير الله عزّ وجلّ للعالَم أنّ كلّ شيءٍ اشتدّتْ الحاجة إليه كان ذلك أَهْوَن له، وتأمَّلْ ذلك فى الماء فما فوقه.

وكلُّ شيءٍ اشتدّ الغنى عنه، كان ذلك أعزُّ له، وتأمَّلْ فى الياقوت الأحمر فما دونه.

النّاسُ فيما يعانونه كالماشى فى الفلاة[1]، كلّما قطع أرضًا بدتْ له أرضون، وكلَّما قَضَى المرءُ سببًا حدثت له أسباب.

صَدَقَ مَن قَال إنّ العاقل معذَّبٌ فى الدنيا، وصدق من قال إنّه فيها مستريح. فأما تعذيبه فما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته، وبما يحال بينه وبينه مِن إظهار الحق. وأمّا راحتُه فمن كلِّ ما يهتمّ به سائر الناس من فضول الدنيا.

إيَّاك وموافقة الجليس السئ، ومساعدة أهل زمانك فيما يضرّك فى أخراك أو فى دنياك، وإنْ قلَّ، فإنك لا تستفيد بذلك إلاّ الندامة حيث لا ينفعك الندم، ولن يحمدك من ساعدته بل يشمت بك، وأقل ما فى ذلك، وهو المضمون، أنه لا يبالى بسوء عاقبتك وفساد مغبتك.

وإيَّاكَ ومخالفة الجُليس، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرّك فى دنياك ولا وفى أُخراك، وإنْ قلَّ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة، وربما أدَّى ذلك إلى المطالبة[2] والضرر العظيم، دون منفعة أصلاً.

---

(١) الفلاة: الأرض الواسعة المقفرة.

(٢) المطالبة: المساءلة.

إن لم يكن بُدٌّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عزّ وجلّ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق، فأغضب الناسَ ونافرهم، ولا تغضب ربَّك، ولا تنافر الحقّ.

الإتِّساءُ بالنبى ﷺ فى وعظ أهل الجهل والمعاصى والرذائل واجب، فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ وتعدَّى طريقته ﷺ، وصار فى أكثر الأمر مغريًا للموعوظ بالتمادى على أمره، لجاجًا وحَرَدًا[1]، ومغايظة للواعظ الجافى، فيكون فى وعظه مسيئًا لا محسنا. ومَن وعظ بِبِشْرٍ وتَبَسُّمٍ ولين، وكأنَّه مشيُر برأى، ومخبر عن غير الموعوظ بما يستفتح من الموعوظ، فبذلك أبلغ وأنجع فى الموعظة. فإن لم يُتَقبَّل فلينتقل إلى الموعظة بالتحشيم، وفى الخلاء[2]، فإن لم يُقْبَل ففى حضرة مَن يستحى مِنه الموعوظ، فهذا أدب الله فى أمره بالقول واللين.

وكان ﷺ لا يُواجِه بالموعظة، لكن كان يقول:

«ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا». وقد أثنى عليه الصلاة والسلام على الرفْق ،وأمر بالتيسير، ونهى عن التنفير، وكان يتخوّل[3]

(١) حردًا: غضبًا وغيظًا.

(٢) الخلاء: أى وحده، فى مكان لا أحد به ولا شىء فيه.

(٣) يتخول: يتعهد، ويترفق.

بالموعظة خوف الملل، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

وأما الغلظة والشدة فإنما تجب في حدٍّ من حدود الله تعالى، فلا لين في ذلك للقادر على إقَامة الحدِّ خاصة.

ومما يَنْجَعُ في الوعظ أيضا الثناء بحضرة المسيء على مَن فعل خلاف فعله، فهذا داعيةٌ إلى عمل الخير. وما أعلم لحبّ المدح فضلا إلاّ هذا وحده، وهو أن يقتدى به من يسمع الثناء، ولهذا يجب أنْ تؤرَّخ الفضائل والرذائل، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسَنَ المنقول عمن تقدّمه، ويتعظ بما سلف.

تأمَّلْتُ كلَّ ما دون السماء، وطالت فيه فكرتي، فوجدتُ كلَّ شيءٍ فيه من حيٍّ وغير حيّ مِن طَبْعِهِ، إنْ قَوِىَ، أنْ يخلع عن غيره من الأنواع كيفياته ويُلْبِسَه صفاته. فترى الفاضلَ يَودُّ لو كان الناس فضلاء، وترى الناقص يودُّ لو كان الناس نُقَصَاء، وترى كلَّ مَن ذَكَرَ شيئا يَحُضُّ عليه يقول: وأنا أفعلُ أمرًا كذا، وكلُّ ذى مذهبٍ يودْ لو كان الناس موافقين له. وترى ذلك في العناصر إذا قوى بعضها على بعض أحاله إلى نوعيته، وترى ذلك في تركيب الشجر، وفي تَغَذِّى النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض، وإحالتهما ذلك إلى نوعيتها، فسبحان مخترع ذلك ومدبِّره، لا إله إلاّ هو.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

مِن عجيب قدرة الله تعالى كثرةُ الخَلْقِ، ثم لا ترى أحدًا يُشبه آخر شبهًا لا يكون بينهما فيه فرق. وقد سألت مَن طال عمره وبلغ الثمانين عاما هل رأى الصُّوَر في ما خلا مشبهةً لهذه شبهًا واحدًا، فقال لى: لا بل لكل صورة فَرْقُها. وهكذا كل ما فى العالم، يَعْرفُ ذلك مَن تدَّبر الآلات، وجميع الأجسام المركَّبات، وطال تكرُّرُ بصره عليها، فإنّه حينئذ يميِّزُ ما بينها، ويعرف بعضها من بعض بفروق فيها تعرفها النفس، ولا يقدِر أحد يعبّر عنها بلسانه، فسبحان العزيز الحكيم الذى لا تتناهى مقدوراته.

مِن عجائب الدنيا قومٌ غلبتْ عليهم آمالٌ فاسدة، لا يحصلون منها إلاّ على إتعاب النفس عاجلا، ثُم الهمّ والإثم آجلاً، كمن يتمنىَّ غلاء الأقوات التى فى غلائها هلاك الناس، وكمن يتمنى بعض الأمور التى فيها الضرر لغيره وإن كانت له فيها منفعة، فإنّ تأميله ما يؤمِّل من ذلك لا يجعل له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من ذلك بما ليس فى علم الله تعالى تكوّنه، فلو تمنىَّ الخير والرخاء لتعجل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة.

❑❑❑

(٩)

فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

مَن امتُحِنَ بالعُجْبِ فليفكِّر فى عيوبه، فإن أُعجِبَ بفضائله فليفتِّش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خَفِيَتْ عليه عيوبه جملة حتى يظن أنّه لا عيب فيه فليعلم أنّ مصيبته إلى الأبد، وأنه أتمُّ الناسِ نقصًا، وأعظمهم عيوبًا، وأضعفهم تمييزًا. وأوّل ذلك أنه ضعيف العقل، جاهل، ولا عيب أشد من هذين، لأنّ العاقل هو مَن ميَّز عيوبَ نفسه فغالبها، وسعى فى قمعها، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه، إمّا لقلة علمه وتمييزه، وضعف فكرته، وإمّا لأنّه يقدر أن عيوبه خصالٌ، وهذا أشدّ عيب فى الأرض، وفى الناس كثير يفخر بالزنا واللياطة، والسرقة والظلم، فيعجب بتأتى هذه النحوس له، وبقوته على هذه المخازى.

واعلم يقينا أنّه لا يسلم إنْسِىٌّ من نَقْصٍ حاشا الأنبياء صلوات الله عليهم[١].

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى عصمة الأنبياء، وهو مبدأ يتفق عليه أهل السنة، والمعتزلة، والخوارج، والشيعة، مع خلاف فى التفاصيل، وقد أوضح ابن حزم فكرة العصمة، ودافع عنها تفصيلاً فى كتابه: الفصل، ج ٤ ص ٢ – ٣٢.

فمن خفِيَتْ عليه عيوب نفسه فقد سقط، وصار من السُّخْفِ والضعة، والرذالة والخسة، وضَعْفِ التمييز والعقل، وقلّة الفهم، بحيث لا يتخلَّف عنه متخلِّف من الأرذال، وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة، فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه، والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها، وعن عيوب غيره التى لا تضره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وما أدرى لسماع عيوب الناس خصلة إلاّ الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها، ويسعى فى إزالة ما فيه منها، بحول الله تعالى وقوته.

وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلا، والواجب اجتنابه إلاّ فى نصيحة من يتوقّع عليه الأذى بمداخلة المعيب، أو على سبيل تبكيت المعجب فقط فى وجهه لا خلف ظهره، ثم يقول للمُعْجَب ارجع إلى نفسك، فإذا ميَّزتَ عيوبها فقد داويت عُجْبَكَ، ولا تمثِّلْ[1] بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبًا منها، فتستسهل الرذائل، وتكون مقلِّدًا لأهل الشر، وقد ذُمَّ تقليد أهل الخير، فكيف تقليد أهل الشر، لكن مَثِّلْ بين نفسك وبين من هو أفضل منك، فحينئذ يتلف عُجْبك، وتُفيق من هذا الداء القبيح، الذى يُولِّد عليك الاستخفاف بالناس، وفيهم بلا شك من هو خيرٌ منك، فإذا استخففتَ بهم بغير حقّ، استخفُّوا بك بحقّ، لأنّ الله

(١) تمثل: توازن أو تقارن.

تعالى يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1]، فتولَّد على نفسك أن تكون أهلاً للاستخفاف بك، بل على الحقيقة مع مقت الله عزّ وجلّ، وطمس ما فيك من فضيلة.

فإنْ أُعجبْتَ بعقلك ففكِّرْ في كلّ فكرة سوءٍ تحلُّ بخاطرك، وفي أضاليل الأماني الطائفة بك، فإنّك تَعْلَمُ نَقْصَ عقلك حينئذ.

وإنْ أُعجبتَ بآرائك فتفكَّرْ في سقطاتك واحفظها، ولا تنسها، وفي كلّ رأيٍ قدَّرتَه صوابا، فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك، وأخطأت أنتَ، فإنّك إنْ فعلتَ ذلك فأقلُّ أحوالكَ أن يُوازَن سقوط رأيك بصوابه، فتخرج لا لكَ ولا عليك، والأغلبُ أنّ خطأك أكثر من صوابك، وهكذا كلّ أحدٍ من الناس بعد النبيين، صلوات الله عليهم.

وإن أُعجبتَ بعملك فتفكَّرْ في معاصيك، وفي تقصيرك، وفي معاشك ووجوهه، فوالله لتجدنَّ مِن ذلك ما يغلب على خيرك، ويُعَفِّي[2] على حسناتك، فليطل هَمُّكَ حينئذ، وأَبْدِل من العجب تَنَقُّصًا لنفسك.

وإن أُعجبتَ بعلمك فاعلم أنّه لا خصلة لك فيه، وأنّه موْهبة من الله مجرّدة، وهبك إيّاها ربُّك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعلّه ينسيك ذلك بعلَّة يمتحنك بها، تُولِّد عليك نسيان ما علمت وحفظت.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) يعفي: يزيل ويمحو.

ولقد أخبرنى عبد الملك بن طريف[1]، وهو من أهل العلم والذكاء، واعتدال الأحوال، وصحة البحث: أنّه كان ذا حظ من الحفظ عظيم، لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته، وأنّه ركب البحر فمرّ به فيه هَوْلٌ شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ، وأخلَّ بقوة حفظه إخلالاً شديدًا لم يعاوده ذلك الذكاء بعد.

وأنا أصابتنى علّةٌ فأفقتُ منها، وقد ذهب ما كنتُ أحفظ إلاَّ ما لا قدْر له، فما عاودتُهُ إلاّ بعد أعوام.

واعلم أن كثيرًا من أهل الحرص على العِلْم يجدّون فى القراءة، والإكباب على الدروس والطلب، ثم لا يرزقون منه حظًّا، فليعلمْ ذو العلم أنّه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصحّ أنّه موْهبة من الله تعالى، فأىّ مكانٍ للعُجْب ها هنا، ما هذا إلاّ موضع تواضعٍ وشُكْر لله تعالى، واستزادة من نعمه، واستعاذة من سَلْبها.

ثُمَّ تفكَّرْ أيضا فى أنّ ما خفى عليك، وجهلته من أنواع العلم، ثم من أصناف علمك الذى تختص به، فالذى أُعجبتَ بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك، فاجعل مكان العجب استنقاصًا لنفسك،

(١) يكنى أبا مروان، ولد فى قرطبة، وتتلمذ على ابن القوطية، وكان حسن التصرف فى اللغة، وأكمل كتاب أستاذه «الأفعال»، وأصبح فيما بعد من أشهر الكتب دراسة فى الأندلس، وتوفى قريبا من عام ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م، انظر:
- ابن بشكوال: الصلة، الترجمة ٧٦٤، طبعة الدار المصرية.
- الضبى: البغية، الترجمة ١٥٦٥هـ، طبعة مدريد.

واستقصارًا لها، فهو أولى. وتفكَّرْ فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيرًا، فَلْتَهُنْ نفسُك عندك حينئذ، وتفكَّرْ فى إخلالك بعلمك، وأنك لا تعمل بما علمتَ منه، فلعلمك عليك حجة حينئذ، ولقد كان أسلمْ لك لو لم تكن عالما. واعلم أنّ الجاهل حينئذ أعقل منك، وأحسن حالاً وأعْذر، فليسقط عُجْبُك بالكلية.

ثُمَّ لعلَّ عِلْمَك الذى تَعْجَب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة، التى لا كبير خصلة فيها كالشِّعْر وما جرى مجراه، فانظرْ حينئذ إلى مَن علمه أجل مِن علمك فى مراتب الدنيا والآخرة، فتهون نفسك عليك.

وإنْ أعْجبتَ بشجاعتك فتفكَّرْ فيمن هو أشجع منك، ثم انظر فى تلك النجدة التى منحك الله تعالى فِيمَ صَرَفْتَها، فإنْ كنتَ صرفْتها فى معصية فأنت أحمق، لأنّك بذلتَ نفسك فيما ليس ثمنًا لها، وإن كنت صرفتها فى طاعة فقد أفسدتها بِعُجْبِكَ. ثم تفكَّرْ فى زوالها عنك بالشيخوخة، وأنّك إنْ عشت فستصير من عدد العيال وكالصبى ضعفا.

على أنِّى ما رأيتُ العجب فى طائفة أقلّ منه فى أهل الشجاعة، فاستدللت بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعتها وعلِّوها.

وإنْ أُعجبتُ بجاهك فى دنياك فتفكَّرْ فى مخالفيك، وأندادك، ونظرائك، ولعلهم أخِسَّاء وضعفاء سقَّاط، فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه، ولعلَّهم ممن يُستحيا مِن التشبِّه بهم، لفرط رذالتهم،

وخساستهم فى أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم، فاستهنْ بكل منزلةٍ شاركك فيها مَن ذكرْتُ لك، وإنْ كنتَ مالكَ الأرض كلّها، ولا مخالف عليك، وهذا بعيد جدًّا فى الإمكان، فما نعلم أحدًا مَلَكَ معمورَ الأرض كله، على قلته وضيق ساحته، بالإضافة إلى غامرها، فكيف إذا أضيف إلى الفلك المحيط، فتفكَّرْ فيما قال ابن السمَّاك(1) للرشيد، وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه، فقال له: فلو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَة بكم كنتَ ترضى أن تبتاعها؟ فقال له الرشيد: بملكى كله!. قال: فلو مُنِعْتَ خروجها منك، بكم كنت ترضى أن تُفْتَدى من ذلك؟ قال: بملكى كله!. قال: يا أمير المؤمنين، أتغتبط بملك لا يساوى بَوْلة ولا شَرْبة ماء؟!، وصدق ابن السمَّاك، رحمه الله.

وإنْ كنتَ مَلِكَ المسلمين كلهم فاعلم أنّ مَلِكَ السودان، وهو رجل أسود رَذْل، مكشوف العورة جاهل، يملك أوسع من ملكك.

---

(1) ابن السماك: أبو العباس محمد بن صبيح، زاهد الكوفة الشهير، أخذ عن هشام بن عروة، والأعمش، وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره. وتوفى فى الكوفة عام ١٨٣هـ - ٧٩٩م، ومن حكمه المشهور: «خف الله كأنك لم تطعه أبدا، وارجه كأنك لم تعصه لحظة». انظر:

• ابن خلكان: الوفيات، ج ٢ ص ٢٩٦، طبعة بولاق، القاهرة ١٢٩٩هـ.

• الشعرانى: طبقات الشافعية، ج ١ ص ٥٢، القاهرة ١٣١٧هـ. وما يرويه ابن حزم هنا يوجد فى:

• ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١٥٠، طبعة نودنبرج.

فإنْ قلتَ: أنا أخذتُه بحق، فلعمرى ما أخذتَه بحق، إذا استعملت فيه رذيلة العُجْبِ، وإذا لم تعدل فيه فاستَحْيِ من حالك، فهى حالُ رذالة لا حالة يجب العجب فيها.

وإنْ أُعجبتَ بمالك فهذه أسْوء مراتب العُجْب، فانظرْ فى كل ساقط خسيس هو أغنى منك، فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها مَن ذكرتُ.

واعلم أَنّ عُجْبك بالمال حمقٌ، لأنه أحجار لا تنتفع بها إلاّ أن تخرجها عن ملكك بنفقتها فى وجهها فقط، والمال أيضا غادٍ ورائحٌ، وربما زال عنك، ورأيته بعينه فى يد غيرك، ولعل ذلك يكون فى يد عدوّك، فالعجب بمثل هذا سخفٌ، والثقة به غرور وضعف.

وإنْ أُعجبتَ بحسنك ففكر فيما يولّدّ[1] عليك مما نستحى نحن من إثباته، وتستحى أنتَ منه إذا ذهب عنك بدخولك فى السن، وفيما ذكرنا كفاية[2].

وإنْ أُعجبتَ بمدْح إخوانك لك ففكِّرْ فى ذمِّ أعدائك إيّاك، فحينئذ ينجلى عنك العجب، فإن لم يكن لك عدٌّو فلا خير فيك، ولا منزلة أسقط مِن منزلة مَن لا عدوّ له، فليست إلاّ منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمةٌ يُحسد عليها، عافانا الله.

(١) يولد: يستحدث.

(٢) يشير إلى اللواط، فيما يبدو لى.

فإنْ استحقرْتَ عيوبَك ففكِّر فيها لو ظهرتْ إلى الناس، وتمثَّل اطلاعهم عليها، فحينئذ تخجل وتعرف قدْر نقصك، إنْ كانت لك مسكة من تمييز.

واعلمْ بأنك إنْ تعلّمتَ كيفية تركيب الطبائع، وتولُّد الأخلاق، من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس، فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها، وأنها مَنْحٌ مِن الله تعالى، لو منحها غيرك لكان مثلك، وأنَّك لو وُكِلْتَ إلى نفسك لعجزت وهلكت، فاجعل بدل عجبك بها شكرًا لواهبك إياها، وإشفاقًا من زوالها، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض، وبالفقر، وبالخوف، وبالغضب، وبالهرم، وارحم مَن مُنعَ ما مُنِحْتَ، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصى على واهبها تعالى، وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقًّا، فتقدِّر أنك استغنيت عن عصمته، فتهلك عاجلا وآجلا.

ولقد أصابتنى علّة شديدة، ولَّدت علّى ربْوًا فى الطحال شديدًا، فوّلَّد ذلك علىّ من الضجر وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق، أمرًا حاسبتُ نفسى فيه، إذ أنكرتُ تبدُّل خلقى، واشتدّ عُجْبى من مفارقتى لطبعى، وصحّ عندى أن الطحّال موضع الفرح إذا فسد تولّد ضده[1].

(١) لم يحدد العلم، أو الطب، وظيفة الطحال بصورة نهائية حتى اليوم، وابن حزم، طبقًا للسائد على أيّامه، يجعله مصدرا لظواهر الفرح والحزن التى أشار إليها. وهذه الفقرة المتصلة بحياة ابن حزم، يمكن ربطها باعترافات أخرى سوف يشير إليها فيما بعد، وتفسر لنا مصدر حدته فى جدله، وفى مؤلفاته، واشتهر بها بين معاصريه.

وإنْ أُعجبتَ بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا، لأنّ هذا الذى أُعجبت به لا فائدة له أصلاً فى دنيا ولا آخرة، وانظر: هل يدفع عنك جَوْعة أو يستر لك عْورة، أو ينفعك فى آخرتك، ثم انظر إلى من يساهمك فى نسبك، وربّما فيما هو أعلى منه، ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام، ثم ولادة الخلفاء، ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء، ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة، ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الإسلام، فتأَمَّلْ غُبَّراتهم[1] وبقاياهم، ومَن يُدلى بمثل ما تُدْلى به من ذلك، تجد أكثرهم أمثال الكلاب خساسة، وتَلْفَهُم فى غاية السقوط والرذالة والتبدُّل، والتحلى بالصفات المذمومة، فلا تغتبطْ بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك.

ثُمَّ، لعلّ الآباء الذين تفخر بهم كانوا فُسَّاقًا، وشربة خمور، ولاطة[2]، ومتعبِّثين[3]، ونوكى[4]، أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظُلْمًا وآثارا قبيحة، تُبقى عارهم بذلك الأيام، ويعظم إثمهم، والندم عليها يوم الحساب، فإن كان كذلك فاعلم أن الذى أعجبت به من ذلك داخل فى العيب والخزى والعار والشنار[5]، لا فى الإعجاب.

---

(١) غبراتهم: بقاياهم.
(٢) لاطه: جمع لوطى.
(٣) متعبثين: عابثين.
(٤) نوكى: حمقى.
(٥) الشنار: العيب.

فإن أُعجبت بولادة الفضلاء إيّاك فما أخلى يدك من فضلهم إنْ لم تكن أنت فاضلا، وما أقلَّ غناهم عنك فى الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا، والناس كُلّهم أولاد آدم الذى خلقه الله بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، ولكن ما أقلّ نفعه لهم، وفيه كل معيب، وكل فاسق، وكل كافر. وإذا فكّر العاقل فى أنّ فَضْل آبائه لا يقرّبه من ربه تعالى، ولا يكسبه وجاهة لم يَحُزها هو بسعده أو بفضله فى نفسه، ولا مالاً، فأىّ معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه، وهل المُعْجَب بذلك إلاّ كالمُعْجَبِ بمال جاره، وبجاه غيره، وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه، كما تقول العامة فى أمثالها، كالغبىّ يُزهى بذكاء أبيه، فإن تضاعف بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك، لأنّه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب، هذا إن امْتُدحْتَ بحقّ، فيكف إن امْتُدحِتَ بالكذب. وقد كان ابن نوح، وأبو إبراهيم، وأبو لهب عم النبى ﷺ، أقرب الناس من أفضل خَلْقِ الله تعالى، وممن الشرف كله فى اتِّباعهم، فما انتفعوا بذلك[1].

---

(١) وَهِمَ أسين بلاثيوس فى هذه الفقرة حين ترجم الكتاب إلى الإسبانية، ربما لأنه قام بها فى شبابه، ولم يعد إليها مقومًا حين أصبح علامة، فقد عرف بالأعلام الواردة بها: قدم ترجمة موجزة لأبى لهب، وظن أن «ابن نوح» كنيه لشخص، وكتبه هكذا: Abennuh، وفعل الشىء نفسه مع «أبو إبراهيم»، وكتبه هكذا: Abuibranim، وظن أنهما من أقارب الرسول عليه السلام، شأن أبى لهب، واعتذر بأنه بحث فى كتب=

وقد كان فيمن وُلِدَ لغير رشدة[١] مَن كان الغاية فى رياسة الدنيا، كزياد وأبى مسلم[٢]، ومن كان نهاية فى الفضل على الحقيقة، كبعض مَن نُجِلُّه عن ذكره فى مثل هذا الفصل، ممن يُتَقَرَّب إلى الله تعالى بحبه، والاقتداء بحميد آثاره[٣].

وإنْ أُعجبتَ بقوة جسمك فتفكَّرْ فى أنّ البغل والحمار والثور أقوى منك، وأحمل للأثقال، وإنْ أُعجبتَ بخفَّتِكَ فاعلم أنّ الكلب والأرنب يفوقانك فى هذا الباب، فمن العُجْبِ العُجاب إعجاب ناطق بخصلة يفوقها فيها غير الناطق.

=التراجم فلم يعثر لهما على خبر، وغفل تماما أن المقصود هو «ابن نوح» الذى عصى والده فلم يركب معه السفينة، ووردت قصته فى القرآن والتوراة، وكان يجب أن يترجمه على هذا النحو Hijo de Noe، وأن والد إبراهيم هو آذر، ووردت قصته، واسمه، فى القرآن والتوراة أيضا، وكان يجب أن يترجمه هكذا: parre de Abraham.

(١) رشدة: نكاح شرعي.

(٢) زياد ابن أبيه: وينسب إلى أبى سفيان، وجاء من علاقة غير شرعية بين أبى سفيان وامرأة تدعى سمية، ولم يتعرف به أبوه فسمى زياد بن أبيه، ولكن عدم شرعية المولد لم يحل بينه وبين أن يبلغ أعلى المناصب الحربية والسياسية فى خلافة معاوية،وأظهر قدرة فائقة، وشجاعة عالية، فألحقه معاوية بنسبه، واعترف بأخوته رسميا، وتوفى زياد عام ٥٣هـ - ٦٧٢م.

أبو مسلم: ويلقب بالخراساني: كان أيضا ثمرة علاقة غير شرعية، ولعب دورا سياسيًا وحربيًا بارزًا فى إسقاط الخلافة الأموية، وتولى عمالة خراسان، فى خلافة المنصور العباسي، وحاول أن يستقل بها، فاستقدمه الخليفة إلى بغداد، وقتل فيها عام ١٢٩هـ - ٧٤٦م.

(٣) يشير إلى حالات أخرى لأبناء غير شرعيين بلغوا شأوا كبيرًا فى حياتهم السياسية أو العلمية أو الدينية، وكان وضعهم معروفا للجميع على أيامه،دون أن يمس ذلك مكانتهم.

واعلم أنَّ من قدَّر فى نفسه عجبًا، أو ظن لها على سائر الناس فضلاً، فلينظرْ إلى صبره عندما يدهمه من هَمٍّ، أو نكبة، أو وجع، أو دُمَّل، أو مصيبة، فإنْ رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أنّ جميع أهلِ البلاءِ من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه، على تأخُّر طبقتهم فى التمييز، وإنْ رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشيء يَسْبق فيه على ما ذكرنا، بل هو إمّا متأخِّر عنهم فى ذلك، أو مساوٍ لهم ولا مزيد.

ثم لينظُرْ إلى سيرته، وعدله أو جوره، فيما خوّله[1] الله من نعمة أو مال، أو خَوَلٍ[2]، أو أتباع، أو صحة، أو جاه، فإنْ وجد نفسه مُقَصِّرة فيما يلزمه من الشكر لواهبة تعالى، ووجدها خائفة[3] فى العدل، فليعلمْ أنّ أهلَ العدلِ والشكرِ والسيرةِ الحسنةِ من المخَّولين أكثَر مما هو فيه أفضلُ منه، فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيدٌ عن العُجْبِ ألبتة، لعلمه بموازين الأشياء، ومقادير الأخلاق، والتزامه التوسُّط الذى هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين، فإنْ أُعجِبَ فلم يعدل، بل قد مال إلى جَنَبَةَ[4] الإفراط المذمومةَ.

(١) خوّله: أعطاه.
(٢) الخول: العبيد والإماء، وغيرهم من الحاشية.
(٣) حائفة: مائلة.
(٤) جنبة: ناحية وجانب.

واعلم أنّ التعسُّف وسوءَ الملكة لمن خوَّلك اللهُ تعالى أمرَه، من رقيق أو رعية، يَدُلان على خساسةِ النفس، ودناءةِ الهمة، وضعفِ العقل، لأنّ العاقل الرفيع النفس، العاليَ الهمة، إنّما يَغْلب أكفاءه في القوة، ونظراءَه في المنعة، وأماّ الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع، ورذالة في النفس والخلق، وعجزٌ ومهانة، ومَن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقَتْل جُرَذ[1]، أو بقَتْل بُرْغُوث، أو بفَرْك قملة، وحسبك بهذا ضَعَةً وخساسة.

واعلم أنّ رياضة الأنفس أصعبُ من رياضة الأُسُدَ، لأنّ الأُسُدَ إذا سُجِنَتْ في البيوت التي تتخذها الملوك أُمِن شرُّها، والنفس وإنْ سُجِنَتْ لم يُؤْمن شَرُّها.

العُجْبُ أصل يتفرّع عنه التيه، والزَّهْو، والكِبر، والنخوة، والتعالي، وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة، ولذلك صَعُبَ الفرق بينها على أكثر الناس.

فقد يكون العجب لفضيلة في المُعْجَبِ ظاهرة، فمِن مُعْجَبٌ بعلمه، فيكفهرّ[2] ويتعلّق على[3] الناس، ومِن معجَب بعمله فيترفّع ويتعالى، ومِن معجَب برأيه فيزهو على غيره، ومن معجَب بنسبه فيتيه، ومن معجَب بجاهه، وعلِّو حاله، فيتكّبر ويتنخّى.

---

(١) الجرذ: الكبير من الفيران.

(٢) يكفهر: يعبس.

(٣) يتعلق: يتفاخر.

وأقلُّ مراتب العجب أن تراه يتوفّر عن الضحك فى مواضع الضحك، وعن خفّة الحركات، وعن الكلام، إلاّ فيما لابدَّ منه من أمور دنياه. وعيْبُ هذا أقلُّ من عيب غيره، ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات، وتَرْك الفضول، لكان ذلك فضلاً وموجبًا لحمدهم. ولكن، إنّما يفعلون ذلك احتقارًا للناس، وإعجابًا بأنفسهم، فحصل له بذلك استحقاق الذم، «وإنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى».

حتى إذا زاد الأمر ولم يكن هناك تمييز يحجب عن تَوْفية العُجْبِ حقه، ولا عقل جيد، حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس، واحتقارهم بالكلام وفى المعاملة، حتى إذا زاد ذلك، وضَعُف التمييز والعقل، ترقَّى ذلك إلى الاستطالة على الناس بالأذى بالأيدى، والتحكُّم، والظلم، والطغيان، واقتضاء الطاعة لنفسه، والخضوع لها إن أمكنه ذلك، فإنْ لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه، واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم.

وقد يكون العُجْبُ لغير معنى، ولغير فضيلة فى المُعْجَب، وهذا من عجيب ما يقع فى هذا الباب، وهو شئٌ يسمِّيه عامتنا التَّمَتْرُك[١]، وكثيرا ما نراه فى النساء، وفيمن عقله قريبٌ من

(١) تمترك: الكلمة من عامية أهل الأندلس، طبقًا لإشارة ابن حزم نفسه، ولا صلة لها بالرومانثية المستخدمة بين المستعربيين فى الأندلس، وطوائف من المسلمين، ولا باللغة البربرية التى حملها البربر معهم إلى الأندلس ثم تلاشت.=

عقولهن من الرجال، وهو عُجْبُ مَن ليس فيه خصلة أصلاً، لا علم ولا شجاعة، ولا علّو حالٍ، ولا نسب رفيع، ولا مال يطغيه.

وهو يعلم مع ذلك أنّه صفرٌ من ذلك كلّه، لأنّ هذه الأمورٍ لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة، وإنّما يغلط فيها من له أدنى حظ منها، فرُّبما يتوهّم إنْ كان ضعيف العقل أنّه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم، فهو يظن أنّه عالم كامل، أو كمن له نَسَبٌ مُعْرِقٌ فى ظَلَمَةٍ، وتجدهم لم يكونوا أيضا رفعاء فى ظلمهم، فتجده لو كان ابن فرعون ذى الأوتاد ما زاد على إعجابه الذى فيه، أوْله شيءٌ من فروسية، فهو يُقدِّر أنه يهزم عليًّا[1]، ويأسر الزبيرَ[2]، ويقتل خالدا[3]، أوْ له شيء من جاهٍ رَذْلٍ فهو لا يرى الإسكندر على حال.

=ويرى خوليان ريبيرا من كبار المستشرقين الإسبان (١٨٥٨ - ١٩٣٤م) أن مسلمى الأندلس فى عاميتهم العربية كانوا يميلون إلى أن يشتقوا أفعالاً رباعية من أسماء ذات أصول ثلاثية، يضيفون إليها حرف الميم فى البداية فيقولون: تمرجح من مرجحة، وتمخرق من مخرقة، وتمسخر من مسخرة، وتمعدن من معدن، وهكذا. وقد سأل المنصور بن أبى عامر فى مجلسه صاعدًا البغدادى، عن معنى كلمة «تمركل»، وهى من عامية أهل قرطبة، فدار صاعد حولها طبقا للقواعد، ولكنه لم يصل إلى معناها. وفى ضوء هذا يمكن أن نقول إنّ «تَمترك» مشتق من «متروك»، والأصل الثلاثى لهذه هو «ترك»، ومن معانى ترك: طرح، وخلىّ، ونسى، واحتقر، وعزل، ولم يعد يهتم بالأمر، وكلها يمكن أن تهدى إلى المعنى الذى فى الجملة.

(١) على بن أبى طالب رضي الله عنه.

(٢) الزبير بن العوام.

(٣) خالد بن الوليد.

أو يكون قويا على أنْ يكسب ما يتوفّر بيده مُوَيْل[1] يفضل عن قوتّه، فلو أخذ بقرني الشمس لم يزد على ما هو فيه.

وليس يكثر العجَبُ من هؤلاء، وإن كانوا عَجَبًا، لكن ممن لا حظّ له من علم أصلا، ولا نسب ألبتة، ولا مال، ولا جاه، ولا نجدة، بل تراه في كفالة غيره مهتضما لكل من له أدنى طاقة، وهو يعلم أنه خال من كل ذلك، وأنه لا حظ له في شيء من ذلك، ثم هو مع ذلك في حالة المزهوّ التيّاه.

ولقد تسّببتُ إلى سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علّو نفسه، واحتقاره الناس، فما وجدت عنده مزيدا على أن قال لي: أنا حرٌّ، لستُ عبدَ أحد.

فقلت له: أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة، فهم أحرار مثلك، إلا قومًا من العبيد هم أطول منك يدًا، وأمرهم نافذ عليك، وعلى كثير من الأحرار، فلم أجد عنده زيادة، فرجعتُ إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتها، ففكَّرتْ في ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العُجْبِ الذي لا سبب له، فلم أزل أختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم، ومن مراميهم في كلامهم، فاستقرّ أمْرُهم على أنهم يُقَدِّرون أن عندهم فضل عقل، وتَمَيُّز رأيٍ أصيل، لو أمكنتهم الأيام من تصريفه لوجدوا فيه متسعا، ولأداروا

---

(١) مويل: تصغير مال.

الممالك الرفيعة، ولبان فضلهم على سائر الناس، ولو ملكوا مالاً لأحسنوا تصريفه، فمن ها هنا تسرّب التيه إليهم، وسرى العجب فيهم، وهذا مكان فيه للكلام شَعْبٌ عجيب، ومعارضة معترضة، وهو أنه ليس شيءٌ من الفضائل كلّما كان المرء منه أعرى قَوِىَ ظنُّه فى أنه قد استولى عليه، واستمرّ يقينه فى أنّه قد كَمُلَ فيه إلاّ العقل والتمييز، حتى إنك تجد المجنونَ المُطْبِقَ، والسكرانَ الطافح، يسخران بالصحيح، والجاهلَ الناقصَ يهزأ بالحكماء وأفاضلِ العلماء، والصبيانَ الصغارَ يتهكّمون بالكهول، والسفهاءَ العيّارين[1] يستخفون بالعقلاء المتصاونين، وضعفةَ النساءِ يستنقصن عقولَ أكابرَ الرجال وآراءَهم.

وبالجملة فكلما نقص العقلُ توهم صاحبه أنّه أوفر الناس عقلاً، وأكملُ تمييزا، ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل، فإن العارى منها جملة يدرى أنه عار منها، وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظٍّ منها، وإنْ قلّ، فإنه يتوهّم حينئذ، إنْ كان ضعيف التمييز، أنّه عالى الدرجة فيه، ودواء مَن ذكرنا الفقر والخمول، فلا دواء لهم أنجع منه، وإلاّ فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا، فلا تجدهم إلاّ عيّابين للناس، وقّاعين فى الأعراض، مستهزئين بالجميع،

(١) العيارين: جمع عيار، وهو الرجل الذى يخلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها.

مجانبين للحقائق، مكبِّين على الفضول، وربّما كانوا مع ذلك متعرضين للمشاتمة والمهارشة، وربّما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم.

وقد يكون العُجْبُ كمينا فى المرء، حتى إذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه، وعجز عقله عن قَمْعِهِ وسَتْره.

ومن ظريف ما رأيتُ فى بعض أهل الضعف أنّ منهم مَن يغلبه ما يضمر مِن محبَّةِ ولده الصغير وامرأته، حتى يصفها بالعقل فى المحافل، وحتى إنّه يقول: هى أعقل منى، وأنا أتبرك بوصيتها. وأمّا مَدْحُهُ إيّاها بالجمال والحسن والعافية فكثير فى أهل الضعف جدا، حتى كأنه لو كان خاطِبها ما زاد على ما يقول فى ترغيب السامع فى وصفها، ولا يكون هذا إلاّ فى ضعيف العقل، عار من العُجْب بنفسه.

إيَّاكَ والامتداح، فإنّ كل من يسمعك لا يصدقك، وإنْ كنتَ صادقا، بل يجعل ما سمع منك مِن ذلك أول معايبك.

وإيّاكَ ومدحَ أحدٍ فى وجهه، فإنّه فِعْلُ أهل المَلَق وضَعةِ النفوس.

وإيّاكَ وذمَّ أحدٍ لا بحضرته ولا فى مغيبه، فلكَ فى إصلاحِ نفسك شَغْل.

وإيّاكَ والتفاقُرَ[1]، فإنّك لا تحصل من ذلك إلاّ على تكذيبك، أو احتقار من يسمعك، ولا منفعة لك فى ذلك أصلا إلاّ كُفْر نعمة ربك تعالى، أو شكواه إلى من لا يرحمك.

---

(١) التفاقر: ادعاء الفقر.

وإياكَ ووصفَ نفسك باليسار، فإنك لا تزيد على إطماع السامع فيما عندك، ولا تزد على شكر الله تعالى، وذِكْرِ فقرك إليه، وغناك عمن دونه، فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك.

العاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه.

مَن سبَّبَ للناسِ الطمعَ فيما عنده لم يحصل إلاّ على أن يبذله لهم ولا غاية لهذا، أو يمنعهم فَيَلْؤُم ويعادونه فإذا أردتَ أن تعطى أحدًا شيئًا فليكن ذلك منك قبل أن يسألك، فهو أكرمُ وأنْزَهُ، وأوجب للحمد.

مِن بديع ما يقع فى الحسد قَوْلُ الحاسد إذا سمع إنسانًا يُغْرب فى علمٍ مّا: هذا شيءٌ بارد، لم يتقدّم إليه ولا قاله قبله أحد، فإنْ سمع مَن يُبَيِّن ما قد قاله غيرُه قال: هذا بارد، وقد قيل قبله، وهذه طائفةُ سَوْءٍ قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العِلْمَ، يصدّون الناسَ عنها، ليكثر نظراؤهم من الجهال.

الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع، بل يظنه خبيثا مثله.

وقد شاهدت أقواما ذوى طبائع رديّة، وقد تصوَّرَ فى أنفسهم الخبيثة أنّ الناس كلهم على مثل طبائعهم، لا يُصدِّقون أصلاً بأنّ أحدًا هو سالمٌ من رذائلهم بوجه من الوجوه، وهذا أسوءُ ما يكون من فساد الطبع، والبعد عن الفضل والخير، ومن كانت هذه صفته لا ترجى لها معافاة أبدا، وبالله تعالى التوفيق.

العدلُ حصنٌ يلجأ إليه كل خائف وذلك أنّك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه دعا إلى العدل، وأنكر الظلمَ حينئذ وذمَّه، ولا ترى أحدًا يذمّ العدل، فمن كان العدل فى طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين.

الاستهانةُ نوعٌ من أنواع الخيانة، إذ قد يخونك من لا يستهين بك، ومن استهان بك فقد خانك الانصاف، فكل مستهين خائن، وليس كل خائن مستهينا.

الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع.

حالان يَحْسُنُ فيهما ما يقبح فى غيرهما، وهما: المعاتبة والاعتذار، فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادى، وذِكْرُ الإحسان، وذلك غاية القبح فى ما عدا هاتين الحالتين.

لا عيْبَ على مَن مال بطبعه إلى بعض القبائح، ولو أنّه أشدُّ العيوب، وأعظم الرذائل، ما لم يظهره بقوْلٍ أو فعل، بل يكاد يكون أحمدُ ممن أعانه طبعه على الفضائل، ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلاّ عن قّوة عقل فاضل.

الخيانة فى الحُرُمِ أشدُّ من الخيانة فى الدماء.

العِرْضُ أعزُّ على الكريم من المال.

ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عِرْضَه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئًا أبدا.

الخيانةُ فى الأعراضِ أخفُّ من الخيانة فى الأموال، وبرهان ذلك أنه لا يكاد يوجد من لا يخون العرض، وإنّ قلّ ذلك منه، وكان مِن أهل الفضل.

وأمّا الخيانة فى الأموال وإنْ قلّتْ أو كَثُرتْ فلا تكون إلاّ مِن رَذْلٍ بعيدٍ عن الفضل.

القياسُ فى أحوال الناس قد يكذب فى أكثر الأمور، ويبطل فى الأغلب، واستعمال ما هذه صفته في الدين لا يجوز[(١)].

المُقَلِّدُ راضٍ أنْ يُغْبَن عقله، ولعلّه مع ذلك يستعظم أن يُغْبَن فى ماله، فيخطئ فى الوجهين معًا[(٢)].

لا يكره الغبنَ فى ماله، ويستعظمه إلاّ لئيم الطبع، دقيق الهمة، مهين النفس.

مَن جَهِلَ الفضائلَ فليعتمدْ على ما أمره الله ورسوله ﷺ، فإنه يحتوى على جميع الفضائل.

---

(١) يرفض المذهب الظاهرى، وعلى رأسه ابن حزم، مبدأ القياس فى التشريع، ويرى ابن حزم: «أن الله تعالى أنزل الشرائع فما أمر به فهو واجب، وما نهى عنه فهو حرام، وما لم يأمر به ولم ينه عنه فهو مباح مطلق حلال، والنصوص جاءت بكل ما هو محرم، وجاءت بكل ما هو مأمور به، والباقى على أصل الإباحة، فمن أوجب من بعد ذلك شيئًا بقياس أو بغيره، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى، ومن حرم من غير النص، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى».

• ابن حزم: الإحكام فى أصوال الأحكام، ج ٧ ص ٥٦.

(٢) تعرض هذه الفقرة للتقليد، وابن حزم يرفضه فقهيًا بقوة وحسم، ويقول: «التقليد حرام، ولا يحل أن يأخذ بقول أحد من غير برهان».

• محمد أبو زهرة: «ابن حزم، حياته وعصره، آراؤه الفقهية، ص ٣٠٢».

رُبَّ مَخُوفٍ كان التحرُّزُ منه سببُ وقوعه.

وربَّ سرٍّ كانت المبالغة فى طيه سببُ انتشاره.

وربَّ إعراضٍ أبلغُ فى الاسترابة من إدامة النظر.

وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال.

الفضيلة وسطٌ بين الإفراط والتفريط، فكلا الطرفين مذموم، والفضيلة بينهما محمودة، حاشا العقل فإنّه لا إفراط فيه(١).

الخطأُ فى الحزم خيرٌ من الخطأ فى التضييع.

مِن العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة، والرذائل مستقبحة ومستخفّة.

من أراد الإنصافَ فليتوهم نفسَه مكان خصمه، فإن يلوح له وجه تعسّفه.

حدُّ الحزم معرفة الصديق من العدوّ، وغاية الخرقِ والضعفِ جهلُ العدّو من الصديق.

لا تُسْلِم عدوَّك لظُلْمٍ ولا تظلمه، وساو فى ذلك بينه وبين الصديق، وتَحفَّظْ منه، وإيَّاك وتقريبه وإعلاء قدره، فإنّ هذا من فعل النَّوْكى.

من ساوى بين عدوّه وصديقه فى التقريب والرفعة، فلم يَزد على أنْ زهّد الناسَ فى مودّته، وسهّل عليهم عداوته، ولم يزد على

(١) تلتقى هذه الفقرة مع المقولة المشهورة عن أرسطو من أن «الفضيلة وسط بين رذيلتين».

استخفاف عدِّوه له، وتمكُّنه مِن مقاتله، وإفساد صديقه على نفسه، وإلحاقه بجملة أعدائه.

غايةُ الخيرِ أنْ يسلم عدوُّك من ظلمك، ومِن تَرْكك إيّاه للظلم، وأمّا تقريبه فمن شِيَمِ النوْكى الذين قد قرب منهم التلف.

وغايةُ الشرِّ أنْ يسلم صديقك من ظلمك، وأمّا إبعاده فمن فِعْلِ مَن لا عقل له، ومن كُتِبَ عليه الشقاء.

ليس الحِلْمُ تقريبَ الأعداء، ولكنه مسالمتهم مع التحفُّظ منهم.

كم رأينا من فاخر بما عنده من المتاع فكان ذلك سببا لهلاكه، فإيّاكَ وهذا الباب الذى هو ضُرٌّ محض، لا منفعة فيه أصلا.

كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه، ولم نر أحدًا قط، ولا بلغنا، أنّه أهلكه سكوته، فلا تتكلم إلاّ بما يقرِّبك من خالقك، فإنْ خِفْتَ ظالما فاسكت.

قلَّما رأيتُ أمرًا أُمكِنَ، فَضُيِّعَ، إلاّ فات فلم يمكن بعد.

مِحَنُ الإنسان فى دهره كثيرة، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس.

داءُ الإنسانِ بالناس أعظمُ من دائه بالسباع الكَلِبَة، والأفاعى الضارية، لأنّ التحفُّظ من كل ما ذكرنا ممكن، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلاً.

الغالبُ على الناس النفاق، ومن العَجَب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلاَّ من نافقهم.

لو قال قائل: إنّ فى الطبائع كُرِّيّة، لأنَّ أطراف الأضداد تلتقى، لم يَبْعُد من الصدق. وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى، فنجد المرء يبكى من الفرح ومن الحزن، ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة فى تتبع العثرات، وقد يكون ذلك سببا للقطيعة عند عدم الصبر والإنصاف.

كلُّ مَن غلبتْ عليه طبيعةٌ مّا، فإنّه - وإنْ بلغ الغايةَ من الحزم والحذر - مصروع إذا كُويِدَ من قِبَلِها.

كثرةُ الرِّيَبِ تُعَلِّم صاحبَها الكذب، لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب، فيضرى عليه ويستسهله.

أعْدلُ الشهودِ على المطبوع على الصدق وَجْهُهُ، لظهور الاسترابة عليه إنْ وقع فى كِذْبَة أو هَمَّ بها، وأعْدلُ الشهودِ على الكذّاب لسانه، لاضطرابه، ونَقْض بعض كلامه بعضا.

المصيبةُ فى الصديق الناكث أعظمُ من المصيبة به.

أشدُّ الناسِ استعظامًا للعيوب بلسانه هو أشدُّهم استسهالاً لها بفعله، ويُتَبَّينُ ذلك فى مُسافهات أهل البذاء، ومشاتمات الأرذال البالغين غاية الرذالة، من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء، كأهْلِ التعيُّشِ بالزمْر، وكنْسِ الحشوش[1]، والخادمين

(١) الحشوش: جمع حش، ويريد يه هنا الكنيف.

فى المجازر، وكساكنى دور الجُمَل[1] المباحة لكراء الجماعات، والسّاسة للدواب، فإنّ كل من ذكرنا أشد الخلق رميا من بعضهم لبعض بالقبائح، وأكثرهم عيبا بالفضائح، وهم أوغل الناس فيها، وأشرهم بها.

اللقاءُ يذهبُ بالسخائم، فكأن نَظَرَ العينِ للعين يصلح القلوب، فلا يسوءك التقاء صديقك بعدِّوك، فإنّ ذلك يُفتر أمره عنده.

أشدُّ الأشياء على الناس الخوفُ والهمُّ والمرض والفقر، وأشدُّها كلها إيلاما للنفس الهمُّ، للفَقْدِ من المحبوب، وتوقُّع المكروه، ثم المرض، ثم الخوف، ثم الفقر. ودليل ذلك أنّ الفقر يُستعجل ليُطرد به الخوف، فيبذل المرء ماله كله ليأمن. والخوف والفقر يُستعجلان ليطرد بهما ألم المرض، فيغرِّر الإنسان فى طلب الصحة، ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت، ويودُّ عند تيقُّنه به لو بذل ماله كلُّه ويسلم ويفيق. والخوف يُسْتَسْهَل ليطرد به الهمّ،

---

(١) دور الجمل: بيوت البغاء العامة، ويعلق أسين بلاثيوس فى ترجمته للكتاب على هذه الفقرة بأنها الشاهد الوحيد الذى لدينا على وجود مثل هذه الدور فى قرطبة.

والحق أن ابن عذارى عرض للأمر، ويسميها «دار البنات»، ولدينا إشارات أخرى على أن الدولة كانت تتقاضى ضرائب من العاملات فى هذه المهنة، وأن الواحدة منهن كانت تسمى فى لهجة الأندلس «خراجية»، وكان يطلق على بيوت الدعارة نفسها: «دار الخراج».

د. الطاهر أحمد مكى: دراسات عن ابن حزم، ص ٤٩.

فيغرِّر المرء بنفسه ليطرد عنه الهمَّ، وأشدُّ الأمراضِ كلها ألمًا وجعٌ ملازمٌ فى عضو ما بعينه. وأمّا النفوس الكريمة فالذى عندها أشدُّ من كل ما ذكرنا، وهو أسهل المخِّوفات عند ذوى النفوس اللئيمة.

ومما قلته فى الأخلاق:

إنَّما العقلُ أساسٌ فوقه الأخلاقُ سورُ فحلّى العقلَ بالعلم وإلاّ فهو بورُ[1] جاهلُ الأشياءِ أعمى لا يرى كيف يدور وتمامُ العلَمِ بالعدلِ وإلاّ فهو زور وزمامُ العدلِ بالجودِ وإلاّ فيجور وملاكُ الجودِ بالنجدةِ والجبنُ غرورِ عِفَّ إنْ كنتَ غيورا، ما زنى قط غيور وكمالُ الكلِّ بالتقوى وقولُ الحق نور ذى أصول الفضل عنها حَدَثَتْ بعدُ البذور.

ومما قلته أيضا:

زِمــامُ أصــولِ جميــع الفضـائـل
عــدْلٌ وفهــمٌ وجــودٌ وبــاسُ
فمـــن هــذه رُكِّبَــتْ غيُــرهــا
فمن حازها فهو فى النـاس راس
كــذا الــرأس فيــه الأمـور التــى
بــإحسـاسهـا يُكْشَـفُ الالتبـاس

❑❑❑

(١) بور: فاسد لا خير فيه.

(١٠)

فصل فى غرائب أخلاق النفس

ينبغى للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكى المتظلم، وتشكّيه، وشدّة تلوّيه، وتقلُّبه وبكائه، فقد وقفتُ من بعض من يفعلُ هذا، وأنا على يقين أنّه الظالم المعتدى المفرط الظلم. ورأيتُ بعض المظلومين ساكن الكلام، معدوم التشكِّى، مظهرا لقلة المبالاة، فيسبق إلى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم، وهذا مكان ينبغى التثّبت فيه، ومغالبة ميل النفس جملة، وأن لا يميل المرء مع الصفة التى ذكرنا ولا عليها، ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء.

من عجائب الأخلاق أنّ الغفلة مذمومة، وأن استعمالها محمود، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع على الغفلة يستعملها فى غير موضعها، وفى حيث يجب التحفظ، وهو مُغَيَّبٌ عن فهم الحقيقة، فدخلت تحت الجهلِ، فَذُمَّتْ لذلك. وأمّا المتيقِّظُ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا فى موضعها الذى يُذَمُّ فيه البحث والتقصِّى، والتغافلُ فهمًا للحقيقة، وإضرابًا عن الطيش، واستعمالا للحِلْم، وتسكينا للمكروه، فلذلك حُمِدَتْ حالةُ التغافل وذُمَّتْ الغفلة.

وكذلك القولُ فى إظهارِ الجزع وإبطانه، وفى إظهار الصبر وإبطانه، فإنّ إظهار الجزع عند حلَول المصائب مذموم لأنّ مُظْهِرَه

عجز عن مِلْكِ نفسه، فأظهر أمرا لا فائدة فيه، بل هو مذموم فى الشريعة، وقاطعٌ عما يلزم من الأعمال، وعن التأهُّب لما يُتَوَقَّعُ حلوله، ممَّا لعلّه أشنع من الأمر الواقع الذى عنه حدث الجَزَعُ، فلمّا كان إظهار الجزع مذمومًا كان إظهار ضده محمودا، وهو إظهار الصبر، لأنّه مِلْكٌ للنفس، واطّراح لما لا فائدة فيه، وإقبالٌ على ما يعود وينتفع به فى الحال وفى المستأنف. وأما استبطان الصبر فمذموم، لأنّه ضعفٌ فى الحسّ، وقسوةٌ فى النفس، وقلةُ رحمة، وهذه أخلاق سوءٍ لا تكون إلاّ فى أهل الشر وخبثِ الطبيعة، وفى النفوس السْبعِيَّة[1] الرديَّة.

فلما كان ما ذكرنا يَقْبُحُ كان ضدُّه محمودا، وهو استبطان الجزع، لما فى ذلك من الرحمة والشفقة والفهم بقدْرِ الرزيَّة، فصحّ بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء جزوع النفس، صبور الجسد، بمعنى أنّه لا يظهر فى وجهه ولا فى جوارحه شيءٌ من دلائل الجزع.

ولو علم ذو الرأى الفاسد ما استضرَّ به من فساد تدبيره فى السالف لأنجح بتركه استعماله فيما يستأنف، وبالله التوفيق.

❑❑❑

(١) السبعية: نسبة إلى السبع، وهو كل ماله ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها، كالأسد والذئب والنمر.

(١١)
فصل فى تطلّع النفس إلى ما يُستر عنها من كلام مسموع أو شىء مرئيٍ أو إلى المدح وبقاء الذكر

هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحدٌ إلاّ ساقط الهمّة جدا، أو من راضَ نفسه الرياضة التامة، وقمع قوة نفسه الغضبية قمعا كاملا، أو عانى مدواة شَرَهِ النفس إلى سماع كلام تُسَتَّر به عنها، أو رؤية شىء اكتتم به دونها أنْ يُفَكَّر فيما غاب عنها من هذا النوع فى غير موضعه الذى هو فيه، بل فى أقطار الأرض المتباينة، فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون، عديم العقل ألبتة، وإن لم يهتمّ لذلك فهو هذا الذى اختُفى به عنه إلاّ كسائر ما غاب عنه منه سواء بسواء ولا فرق.

ثُمَّ، لترد احتجاجًا على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه: يا نفسُ، أرأيت، إنْ لم تعلمى، أنّ ههنا شيئًا أُخْفِىَ عليك، أكنتِ تَطَّلعين إلى معرفة ذلك أم لا، فلابدَّ مِن لا، فليقل لنفسه: فكونى الآن كما كنت تكونين، لو لم تعلمى بأنّ ههنا شيئا سُتِرَ عنك، فتربحى الراحةَ، وطردَ الهمِّ، وألَم القلق، وقُبْحَ صفةِ الشَّرْ، وتلك

غنائم كثيرة، وأرباح جليلة، وأغراض فاضلة سنيّة، يرغب العاقل فيها، ولا يزهد فيها إلاّ تامُّ النقص.

وأمّا من عَلَق وهْمُهُ وفكره بأن يَبْعُد اسمه فى البلاد، ويبقى ذكرُه على الدهر، فليتفكّر فى نفسه، وليقل لها: يا نفسُ، أرأيتِ لو ذكِرْتِ بأفضل الذكر فى جميع أقطار المعمور، أبد الأبد، إلى انقضاء الدهر، ثم لم يبلغنى ذلك، ولا عرفتُ به، أكان لى فى ذلك سرور أو غبطة أم لا، فلابدّ من لا، ولا سبيل إلى غيرها ألبتة، فإذا صحّ وتيقن فليعلمْ يقينا أنّه إذا مات ولا سبيل له إلى عِلْم أنّه يُذكر أو أنّه لا يُذْكَر، وكذلك إن كان حيًّا إذا لم يبلغه. ثم ليتفكّر أيضا فى معنيين عظيمين: أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولا، الذين لم يَبْقَ لهم على أديم الأرض عند أحدٍ من الناس اسمٌ ولا رسم، ولا ذكر ولا خبر، ولا أثر بوجه من الوجوه. ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين، والزهّاد، ومن الفلاسفة، والعلماء، والأخيار، وملوك الأمم الدائرة، وبناة المدن الخالية، وأتباع الملوك الذين أيضا قد انقطعت أخبارهم، ولم يبق لهم عند أحدٍ علمٌ، ولا لأحدٍ بهم معرفة أصلاً ألبتة. فهل ضَرَّ من كان فاضلاً منهم ذلك، أو نقص من فضائلهم، أو طمس من محاسنهم، أو حطَّ درجتَهم عند بارئهم ﷻ؟.

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس فى شىء من الدنيا خبرٌ عن ملوكٍ من ملوك الأجيال السالفة أبعدُ مما بأيدى الناس من تاريخ ملوك بنى إسرائيل فقط، ثُمّ ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس، وكلّ ذلك لا يتجاوز ألفى عام، فأين ذِكْر من عمّر الدنيا قبل هؤلاء، أليس قد دَثَر، وفنى، وانقطع، ونُسِىَ ألبتة؟. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾[3]، فهل الإنسانُ وإنْ ذُكِرَ برهةً من الدهر إلاّ كمن خلا قبل من الأمم الغابرة، الذين ذُكِروا ثم نُسوا جملة.

ثم ليتفكَّر الإنسانُ فى مَن ذُكِر بخير أو بِشَرٍّ، هل يزيده ذلك عند الله عزّ وجلّ درجةً أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيّام حياته؟. فإذا كان هذا كما قلناه فالرغبة فى الذكْرِ رغبةُ غرور، ولا معنى له، ولا فائدة فيه أصلا.

لكن، إنّما ينبغى أن يرغب الإنسان العاقل فى الاستكثار من الفضائل وأعمال البرّ، التى يستحق من هى فيه الذكَر الجميل،

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٨.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٩.

والثناءَ الحسن، والمدحَ وحميد الصفة، فهى التى تُقرِّبه من بارئه تعالى، وتجعله مذكورا عنده عزّ وجلّ الذكْرَ الذى ينفعه، ويحصل على بقاء فائدته، ولا يبيد أبد الأبد، وبالله تعالى التوفيق.

شُكْرُ المنعم فرضٌ واجب، وإنّما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فأكثر، ثم بالتهمُّم بأموره، والتأتى بِحُسْنِ الدفاع عنه، ثم بالوفاء له حيًّا ومَيتا، ولمن يتصل به من ساقةٍ[1] وأهل كذلك، ثم بالتمادى على ودّه ونصيحته، ونَشْر محاسنه بالصدق، وطىِّ مساويه ما دمت حيًّا، وتوريث ذلك عقبك وأهلَ ودِّك.

وليس من الشكر عَوْنُه على الآثام، وتَرْكُ نصيحته فيما يُوتِغُ[2] به دينه ودنياه، بل مَن عاونَ مَن أحْسَنَ إليه على باطل فقد غشَّه، وكفر إحسانه، وظلمه وجحد إنعامه، وأيضا فإنّ إحسان الله تعالى وإنعامه على كل حال أعظم، وأَقدمُ، وأهنأ من نعمة كل مُنْعِم دونه عزّ وجلّ، فهو تعالى الذى شقّ لنا الأبصار الناظِرة، وفتق فينا الآذان السامعة، ومنحنا الحواس الفاضلة، ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا، وسَخَّرَ لنا ما فى السموات وما فى الأرض من الكواكب والعناصر، ولم يفضِّل علينا من خلقه شيئًا غير الملائكة المقدّسين، الذين هم عُمَّار السموات فقط، فأين تقع

(١) الساقة: التابعون.

(٢) يوتغ: يفسد ويهلك.

نِعَمُ المنعمين من هذه النِّعَم؟، فمن قدَّر أنه يشكر محسنا إليه بمساعدته على باطل، أو بمحاباته فيما لا يجوز، فقد كفر نعمةَ أعظم المنعمين، وجحد إحسانَ أجلَّ المحسنين إليه، ولم يشكر وليَّ الشكر حقًّا، ولا حمد أهل الحمد أصلاً، وهو الله عزّ وجلّ.

ومَن حال بين المُحْسِن إليه وبين الباطل، وأقامه على مُرِّ الحق، فقد شكره حقًّا، وأدَّى واجب حقه عليه مستوفى، ولله الحمد أوَّلًا وآخرا، وعلى كل حال.

❑❑❑

(١٢)

فصل فى حضور مجالس العلم

إذا حضرتْ مجلسَ العلم فلا يكن حضورك إلاّ حضور مُستزيدٍ عِلْمًا وأَجْرًا، لا حضور مُسْتَغْنٍ بما عندك، طالبًا عَثْرةً تشيعها، أو غريبةً تشنعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون فى العلم أبدا، فإذا حضرْتَها على هذه النية، فجلوسُكَ فى منزلك أرْوَحُ لبدنك، وأكرمُ لخلقك، وأسلمُ لدينك.

فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزمْ أحدَ ثلاثة أوجهٍ لا رابع لها وهى:

إما أنْ تسكتَ سكوتَ الجهّالِ فتحصل على أجْر النيّة فى المشاهدة، وعلى الثناء عليك بقلة الفضول، وعلى كرم المجالسة، ومودَّة مَن تجالس.

فإن لم تفعل ذلك فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل على هذه الأربع محاسن، وعلى خامسة، وهى استزادة العلم.

وصفة سؤال المتعلم أن تسأل عمّا لا تدرى، لا عمّا تدرى، فإنّ السؤال عما تدريه سُخْف، وقلَّة عقل، وشغل لكلامك، وقَطْع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربُّما أدَّى إلى اكتساب

العداوات، وهو بَعْد عَيْنُ الفضول، فيجب عليك أن لا تكون فضوليا، فإنَّها صفة سَوْءٍ، فإنْ أجابك الذى سألتَ بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام، وإنْ لم يُجِبكَ بما فيه كفاية، أو أجابك بما لم تفهم فقل له: لم أفهم، واستزده، فإن لم يزدْك بيانًا وسكت، أو أعاد عليك الكلامَ الأوّل ولا مزيد، فأمسكْ عنه، وإلاّ حصلْتَ على الشرِّ والعداوة، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة.

والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك أنْ تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بَيِّنا، فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرارُ قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة فأمسكْ، فإنَّك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر ذلك، ولا على تعليم، ولا على تَعَلُّم، بل على الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التى رُبَّما أدّت إلى المضرات، وإيَّاكَ وسؤالَ المُعْنِتِ، ومراجعةَ المُكَابر، الذى يطلب الغَلَبَة بغير عِلْم، فهما خُلُقا سوءٍ، دليلان على قِلَّة الدين، وكثرة الفضول، وضعف العقل، وقوة السخف، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وإذا ورد عليك خطابٌ بلسان، أو هجمت على كلام فى كتاب، فإيَّاك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة، قبل أن تتبين بطلانه ببرهان قاطع. وأيضًا فلا تُقْبل عليه إقبالَ المصدِّق به، المستحسِنُ إياه، قبل علمك بصحته ببرهان قاطع، فتظلم فى كلا الوجهين نفسَكَ، وتبعد عن إدراك الحقيقة. ولكن، أقبِلْ عليه

إقبالَ سالم القلب عن النزاع عنه، والنزوع إليه، ولكن إقبال مَن يريد حظّ نَفسه فى فهْم ما سمع ورأى، فالتزيُّد به علمًا، وقبوله إنْ كان حسنًا، أو ردّه إَن كان خطأ، فمضمونٌ لك، إنْ فعلتَ ذلك، الأجرُ الجزيل، والحمدُ الكثير، والفضلُ العميم.

مَن اكتفى بقليله عن كثير ما عندك فقد ساواك فى الغنى، ولو أنك قارون، حتى إذا تصاونَ فى الكسب عما تَشْرَه أنت إليه فقد حصل أغنى منك بكثير.

ومَن ترفّع عما تخضع إليه من أمور الدنيا فهو أعزُّ منك بكثير.

فُرِضَ على النّاس تَعَلُّم الخير، والعمل به، فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا، ومَن علمه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعليم، وأساء فى تَرْك العمل به، فخلط عملاً صالحًا وآخر سيئا، وهو خيرٌ من آخر لم يعلمه، ولم يعمل به، وهذا الذى لا خيرَ فيه أَمْثَلُ حالاً، وأقلُّ ذمًّا، مِن آخر ينهى عن تعلُّم الخير، ويصدُّ عنه.

ولو لم يَنْهَ عن الشرِّ إلاّ من ليس فيه منه شىء، ولا أمر بالخير إلاّ من استوعبه، لما نُهِىَ أحدٌ عن شرّ، ولا أُمِر بخير، بعد النبى ﷺ، وحسبك بمن أدّى رأيُه إلى هذا فسادا وسوءَ طبعٍ، وذمَّ حالٍ، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد رضي الله عنه:

فاعترض هاهنا إنسان، فقال: كان الحسن رضي الله عنه إذا نهى عن شىءٍ لا يأتيه أصلا، وإذا أمر بشىءٍ كان شديد الأخذِ به، وهكذا تكون

الحكمة. وقد قيل: أقْبَحُ شيء في العالِمِ أنْ يأمر بشيءٍ لا يأخذ به في نفسه، أو ينهى عن شيء يستعمله.

قال أبو محمد:

كَذَبَ قائلُ هذا، وأقَبحُ منه من لم يأمر بخير ولا نهى عن شرّ، وهو مع ذلك يعمل الشرَّ ولا يعملُ الخير.

قال أبو محمد:

وقال أبو الأسود الدؤَلي:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مثْلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
وابدأْ بنفسكَ فانْهَهَا عن غَيِّها
فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيم
فهناك يُقْبَل إنْ وَعَظْتَ ويُقْتدى
بالعلم منك، وينفع التعليم

قال أبو محمد:

إنّ أبا الأسود إنما قصد بالإنكار المجيءَ بما نهى عنه المرء، وأنّه يتضاعف قبحُهُ منه مع نَهْيِهِ عنه، فقد أحسنَ كما قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(١)، ولا يُظَنُّ بأبي

((١)) سورة البقرة: الآية ٤٤.

الأسود إلاّ هذا. وإمَّا أنْ يكون نَهى عن النَّهْيِ عن الخلق المذموم، فنحن نعيذه بالله من هذا، فهو فعل من لا خير فيه. وقد صحَّ عن الحسن أنه سمع إنسانًا يقول: لا يجب أنْ يَنْهى عن الشرِّ إلا من لا يفعله، فقال الحسن: ودَّ إبليسُ لو ظفر منّا بهذه، حتى لا ينهى أحدٌ عن منكر، ولا يأمر بمعروف!.

وقال أبو محمد:

صدَق الحسنُ، وهو قوْلنا آنفا. جعلنا الله ممن يُوَفَّق ليفِعْل الخْيرِ والعمل به، وممن يبصر رُشْدَ نفسه، فما أحدٌ إلاّ له عيوبٌ إذا نظرها شغَلَتْه عن غيره، وتوفّانا على سنَّة محمد ﷺ آمين، رب العالمين.

❑❑❑

كشاف عام
بالأعلام الواردة فى نص الكتاب

آدم:

إبراهيم (النبى):

ابن السماك:

أبو الأسود الدؤلى:

أبو بكر بن أبى الفياض:

أبو لهب:

أبو مسلم الخراسانى:

إستجة:

الإسكندر الأكبر:

الأندلسى:

أفلاطون:

بزرجمهر:

بلنسية:

بنو إسرائيل:

الحسن البصرى:

الحسن بن على:

خالد بن الوليد:

الزبير بن العوام:

زياد بن أبيه:

السودان:

عبد الملك بن طريف:

عثمان بن محامس:

على بن أبى طالب

الفرس:

فرعون:

قارون:

مبارك الصقلبى، أمير بلنسية:

المجوس:

محمد ﷺ:

مظفّر الصقلبى، أمير بلنسية:

نوح:

هارون الرشيد:

الهند:

اليهود:

اليونان:

فهرس تحليلى لمادة الكتاب

• الترتيب أبجدى حسب هيئة الكلمة، دون نظر إلى أصلها الثلاثى، ودون أن نأخذ فى الاعتبار أداة التعريف.

(أ)

الآخرة:

إبليس:

ابن حزم: [انظر: اعترافات..]

الإتساء:

الإثم:

الأحمق: [انظر أيضًا: الحمق]:

الأخلاق:

الإخوان:

الإساءة:

الاستئثار، أول مراتب الحب:

الاستهانة:

الاعتذار:

اعترافات ابن حزم:

عيوبه:

الغضب والرضا:

الدعابة:

العجب:

الحركات:

حب الصيت والغلبة:

الإفراط فى الأنفة:

عيوب مستترة:

الحقد:

سوء الظن:

مخالفة الآخرين:

الرد على من ينال منه أو من أصدقائه:

الرد على من اتهمه بتضييع المال:

حب العدل والحق:

لم يعرف الزهو والحسد
والخيانة:
تغير بعض أصدقائه عليه:
انتفاعه بأهل الجهل:
تأمل الدنيا:
علّة ذهبت بحفظه ثم عاد
إليه:
إصابته بالربو وتأثيره فى
أخلاقه:
مشاهدات ابن حزم:
الإعجاب، ثانى مراتب الحب:
الإعراض:
الإفراط:
الألفة، ثالث درجات الحب:
الأمانة:
الأمن:
الإنسان [انظر أيضًا: الناس]:
الإنصاف:
الإهمال:
الإيثار:
(ب)
البخل:
البذل:
بطانة السلطان:
البعد:
(ت)
التبذير:
التحرز:
التعالى:
التمييز:
التقليد:
التلّون:
التولّى:
التيه:
(ث)
الثبات:
(ج)
الجاه:

الجبن:
الجزع:
الجنس، [وانظر أيضًا: الحب]:
الجنون:
الجهل:
الجود:
الجور:

(ح)

الحب، [وانظر أيضًا: الجنس]:
حب الذِكْر (انظر: الصيت أيضًا):
الحدود:
الحرص:
الحزم:
الحسد:
الحسن:
الحق:
الحكمة:
الحلاوة:
الحلم:
الحمق:
الحياء:

(خ)

الخبث:
الخسارة:
الخطأ:
الخمر:
الخمول:
الخوف:
خيال الظل:
الخيانة:
الخير:

(د)

الدنيا:
الدهاء:
الدياثة:
الدين:

(ذ)

الذل:
الذم:

(ر)
الرأى:
الرذيلة:
الرزانة:
الرغبة:
الروعة:
الرياء:
(ز)
الزنا:
الزوجة، [زوجة الصديق والتقوّل عليها]:
الزور:
الزهد:
الزهو:
(س)
السخف:
السر:
السرقة:
السكر: (انظر: الخمر)
السكوت:
السلاطة:
السلو:
(ش)
الشجاعة:
الشح:
الشر:
الشطرنج:
الشعر [رأى ابن حزم فيه]:
الشغف: وهو أعلى مراتب الحب:
الشفاعة:
الشكر:
(ص)
الصبر:
الصحة:
الصداقة:
الصدق:
الصواب:
الصيت:

الصيد:

(ط)

الطمع:

(ظ)

الظلم:

الظن:

(ع)

العار:

العاقل:

العامة:

العتاب:

العجب:

العدل:

العِرْض:

العزة:

العزل:

العشق: [انظر أيضًا: الحب]:

العفة:

العقل:

العِلْم:

العمل:

العيب:

(غ)

الغدر:

الغصب:

الغضب:

الغفلة:

الغلاء:

الغناء:

الغنى [وانظر المال أيضًا]:

الغيرة:

(ف)

الفخر:

الفضل:

الفضيلة:

الفقر:

الفهم:

(ق)

القتل:
القرب:
القناعة:
القوام:
القياس:

(ك)

الكبر:
الكذب:
الكرم [انظر: الجود أيضًا]
الكسب:
الكلام:
الكلف، وهو العشق:
الكيد:

(ل)

اللجاج:
اللذة:
الله:

(م)

المال:
المبالاة:
محمد عليه الصلاة والسلام:
المخالفة:
المداراة:
المدح:
المرأة:
المرض:
المروءة:
المسألة:
المسامحة:
المصاهرة:
المعاملة:
الملاحة:
الملق:
الملل:
الموافقة:
الموت:
الميل إلى القبائح والعيوب:

(ن)
النـاس:
النجدة:
النخوة:
النـرد:
النزاهة:
النصيحة:
النفاق:
النفس:
النقص:
النكاح من القرائب:
النكبة:
النميمة:
النوْكى:
النوم:
(هـ)
الهبة:
الهم:
(و)
الوجع:
الوعظ، طرائقه:
الوفاء:
الوقاحة:
الوقار:

كتب أخرى للمحقق

- امرؤ القيس: حياته وشعره.
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
- دراسة فى مصادر الأدب.
الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
- مع شعراء الأندلس والمتنبى.
ترجمة كتاب غرسية غومث، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.
- بابلو نيرودا: شاعر الحب والنضال.
دار روزاليوسف، ١٩٧٤ (نفد).
- طوق الحمامة، لابن حزم (تحقيق).
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.
- القصة القصيرة: دراسة ومختارات.
الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢م.
- الشعر العربى المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته.
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.
- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.

- الحضارة العربية فى أسبانيا.

الطبعة الثانية ترجمة لكتاب ليفى بروفنسال، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.

- ملحمة السيدة دراسة مقارنة.

الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

- الفن العربى فى أسبانيا وصقلية.

ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥م.

- التربية الإسلامية فى الأندلس.

ترجمة لكتاب خولين ريبيرا، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة.

الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

- الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.

دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠م.

- فى الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية.

دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.

- الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف.

ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١م.

محتوى الكتاب

الموضوع	صفحة
الإهداء	٥
كلمة فى البدء	٧
صورة تمثال لابن حزم فى قرطبة	٩
المؤلِّف:	
ابن حزم شاهد عصر	١١
أسرة من المولَّدين	١٢
طفولة بين الحريم	١٥
ثوّار وعباد جمال	١٧
أزمة الخلافة	٢٢
منفىّ ومتآمر	٢٥
بريق انتصار	٢٩
خيبة أمل وتغيير الطريق	٣١
جهد ثقافى عملاق	٣٣
فى مواجهة العواصف	٣٦
محافظون ومجدّدون	٣٩

الموضوع صفحة

مناظرات وملاحقة ٤١
هزيمة دون كيشوتة ٤٨
تلاقى النقيضين ٥٢
ثائر على الدوام ٥٣

الكتاب:

توثيق ودراسة ٥٧
مخطوطات الكتاب ٦٩
الكتاب مطبوعًا ٧٤
الكتاب فى اللغات الأجنبية ٨٦
مادة الكتاب ٩١
منهج ابن حزم فى الكتاب ٩٤
مصادر الكتاب ٩٧
من طوق الحمامة إلى الأخلاق والسير ١٠٠

نص الكتاب:

المقدمة ١٠٨
١ - فصل فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق ١١٠
٢ - باب عظيم من أبواب العقل والراحة ١١٥
٣ - فصل فى العلم ١٢٠

الموضوع صفحة

٤ – فصل فى الأخلاق والسير ١٢٧
٥ – فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة ١٤٧
٦ – فصل فى أنواع المحبة ١٦١
٧ – فصل فى أنواع صباحة الصور ١٦٩
٨ – فصل فيما يتعامل الناس به وفى الأخلاق ١٧١
٩ – فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة ١٨٢
١٠ – فصل فى غرائب أخلاق النفس ٢٠٨
١١ – فصل فى تطلع النفس إلى ما يستر عنها من كلام
مسموع أو شىء مرئى، أو إلى المدح وبقاء الذكر ٢١٠
١٢ – فصل فى حضور مجالس العلم ٢١٥
كشاف عام با لأعلام الواردة فى نص الكتاب ٢٢١
فهرس تحليلى لمادة الكتاب ٢٢٣
محتوى الكتاب ٢٣١